من أسرار الفرائد القرآنية

في سياق الحديث عن الجنة والنار

إعداد

د/ عبدالله محمد سليمان حسيني

مدرس البلاغة والنقد

كلية اللغة العربية بالزقازيق

المقدمة:

الحمد لله الذي أنزل الكتاب بلسان عربي مبين، فجاء متفرداً في نظمه وأسلوبه وطريقة بنائه، فبلغ قمة البلاغة ونهاية الإعجاز، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وأزواجه وذريته وورثته من أهل العلم وأمته أجمعين.

وبعد،

فإن من فضل الله – سبحانه وتعالى – بعباده المسلمين عامة، وبطلاب العلم خاصة أن يسر لهم طريق الأخذ مما اكتنزه في كتابه العظيم الذي أنزله على عبده ونبيه ورسوله محمد – صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم– وأنبأهم بذلك في سورة (القمر) قائلاً سبحانه وتعالى: ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾ {القمر:١٧}.

ونزولاً على ما دعا إليه الله – سبحاه وتعالى – رغبت في أن يكون لي من هذا نصيب أتقرب به إلى الله – تعالى – لعله يرضى. فآثرت أن أعمل على تثوير بعض معاني الفرائد القرآنية في سياق الحديث عن الجنة والنار.

والكلمة القرآنية كلمة فريدة، تجري على النسق البلاغي في مبناها وفي معناها، فكل لفظة في القرآن بل كل حرف فيه قد وضع بميزان حكيم، وقسطاس مستقيم في مكانه المناسب له من السياق القرآني، ولو حاولت أن تضع حرفاً مكان آخر، أو كلمة مكان أخرى لاختل النظم، وتغير النسق، وفات الغرض المقصود.

هنا تتجلى ميزة القرآن، فهو كتاب هداية وعلم، وليس يقصد منه الفن الأدبي وحده، فهو موجود لقصد الإعجاز ولتتميم الفكرة الدينية، وتوصيلها في أجمل صورة وأبهاها، وهو كتاب عقيدة وتشريع سماوي، ومواعظ وأخبار، وأوامر وزواجر، وعلى الرغم من هذا لم تؤثر فيه علميته في أن يبقى منهلا بلاغيا، ونصا أدبيا راقيا.

والألفاظ الفرائد – التي ذكرت مرة واحدة في القرآن، ولم تتكرر مادتها اللغوية، ولم تأت على أية صورة من صور الاشتقاق المعروفة– لا تخرج عن هذا الإطار العام للقرآن، وإن كان لها من الخصوصية ما يجعل الاستعاضة عنها بغيرها إخلال ببناء التركيب وعدم وفائه بالمعنى المقصود.

وهذا يعني أن ما يرتبط بها من الأسرار والنكات البلاغية ذو صلة وثيقة بطبيعة السياق أوالمواقف التي وردت فيها، بحيث لا يمكن أن يؤدي غيرها مؤداها أو يقوم بدورها في التعبير القرآني.

وهذا البحث – والذي جاء بعنوان: من أسرار الفرائد القرآنية في سياق الحديث عن الجنة والنار – يتوفر على دراسة الفرائد القرآنية في جانب من جوانبه التي كثر دورانها في الذكر الحكيم، وهي الفرائد التي وردت في سياق الحديث عن الجنة والنار، حيث بلغ عدد الفرائد الواردة في سياق الحديث عن الجنة إحدى وعشرين فريدة، وعدد الفرائد الواردة في سياق الحديث عن النار تسع عشرة فريدة.

وتعكف هذه الدراسة على البحث في أسرار هذه الفرائد، وتتبع أسرارها ونكاتها البلاغية، ومحاولة تعمق أسباب إيثارها دون غيرها – مما هو في معناها – وبيان مدى مواءمتها للمعنى والغرض، ولطبيعة الموقف أو السياق الذي وردت فيه.

وقد دفعني إلى اختيار الموضوع عدة أسباب منها:

أولاً: الحرص على إكمال الجهد الذي بدأه السابقون في هذا المجال[1] في محاولة مني لوضع لبنة في بناء هذا النوع الذي يتوفر على دراسة المفردة القرآنية.

ثانياً: محاولة الاقتراب من التعرف على منهج القرآن في اصطفاء مفرداته، والأسس التي يبنى عليها هذا الاصطفاء، وأسباب اختيار فريدة ما في سياق ما، دون غيرها، مما هو في معناها.

ثالثاً: خصوصية هذه الفرائد من حيث الغزارة والكثرة، ومن حيث دورانها حول موضوع واحد، مترابط النسج، محكم البناء، متماسك الأجزاء.

وقد اقتضت طبيعة هذا البحث أن يخرج في مقدمة، وتمهيد، وفصلين، وخاتمة، وفهارس.

المقدمة: تحدثت فيها عن أهمية الموضوع، وأسباب اختياره، والخطة التي سرت عليها، والمنهج المتبع في الدراسة.

التمهيد: ضمنته معنى لفظة (فريدة) عند أصحاب المعاجم وغيرهم، والدراسات التي عُنيت بالبحث في هذا الجانب – قديما وحديثا– ومكانة هذه الدراسة التي تتطلع لإكمال هذا الجهد الذي بدأه السابقون.

الفصل الأول: من أسرار الفرائد القرآنية في سياق الحديث عن الجنة.

ويشتمل على ستة محاور:

المحور الأول: من أسرار الفرائد القرآنية في سياق الحديث عن وصف شراب الجنة.

المحور الثاني: من أسرار الفرائد القرآنية في سياق الحديث عن وصف فُرُش الجنة.

المحور الثالث: من أسرار الفرائد القرآنية في سياق الحديث عن وصف أشجار الجنة.

---

(١) سوف نتعرض لبيان هذا بشيء من التفصيل في تمهيد البحث.

المحور الرابع: من أسرار الفرائد القرآنية في سياق الحديث عن وصف ماء الجنة.

المحور الخامس: من أسرار الفرائد القرآنية في سياق الحديث عن وصف نساء الجنة.

المحور السادس: من أسرار الفرائد القرآنية في سياق الحديث عن وصف هواء الجنة.

الفصل الثاني: من أسرار الفرائد القرآنية في سياق الحديث عن النار.

ويشتمل على تسعة محاور:

المحور الأول: من أسرار الفرائد القرآنية في سياق الحديث عن وصف عذاب النار.

المحور الثاني: من أسرار الفرائد القرآنية في سياق الحديث عن وصف شفير النار.

المحور الثالث: من أسرار الفرائد القرآنية في سياق الحديث عن وصف آلات العذاب في النار.

المحور الرابع: من أسرار الفرائد القرآنية في سياق الحديث عن وصف حال أهل النار.

المحور الخامس: من أسرار الفرائد القرآنية في سياق الحديث عن وصف شراب أهل النار.

المحور السادس: من أسرار الفرائد القرآنية في سياق الحديث عن وصف طعام أهل النار.

المحور السابع: من أسرار الفرائد القرآنية في سياق الحديث عن وصف سرادق النار.

المحور الثامن: من أسرار الفرائد القرآنية في سياق الحديث عن وصف خزنة النار.

المحور التاسع: من أسرار الفرائد القرآنية في سياق الحديث عن وصف لهب النار.

الخاتمة: تحدثت فيها عن أهم النتائج التي توصل البحث إليها.

فهرس المصادر والمراجع: ضمنته أهم الكتب التي اعتمدت عليها وأفدت منها في هذه الدراسة.

وأما عن المنهج الذي سرت عليه فهو المنهج الاستقرائي التحليلي، الذي يقوم على حصر الفرائد القرآنية – التي وردت في سياق الحديث عن الجنة والنار– ثم تبويبها و تصنيفها على حسب الفصول والمحاور، ثم تحليلها تحليلاً بلاغيا يقوم على استكناه أسرارها واستبطان أبوابها، ومحاولة الكشف عن أسباب اصطفائها بإيثارها في مقام ما دون غيرها.

والله أسأل أن يقبلنا في خدمة القرآن الكريم والسنة الشريفة، ويقبل هذا العمل، ويجعله في صالح الأمة العربية والإسلامية.

دكتور

عبدالله محمد سليمان

التمهيد:

الفرائد جمع فريدة، والفريدة القرآنية هي اللفظة التي وردت في القرآن مرة واحدة، ولم تتكرر فيه مادتها اللغوية بحال من الأحوال، ولو في صورة من صور الاشتقاق المعهودة.

ودليل هذا التوجه ما ذكره أصحاب المعاجم في معناها. يقول ابن فارس في مقاييس اللغة: "الفاء والراء والدال أصل صحيح يدل على وحدة. من ذلك الفرد وهو الوَتْر. والفارد والفرد: الثور المنفرد.. والفريد: الدر إذا نظم وفصل بينه بغيره"[1].

ويقول ابن منظور: "والفرد – بالفتح والضم– هو منقطع القرين لا مثل له في جودته، واستفرد الشيء: أخرجه من بين أصحابه، وأفرده: جعله فرداً.. والفريد – بغير هاء– الجوهرة النفيسة كأنها مفردة في نوعها"[2].

وإطلاق الفرائد على الشيء المنقطع النظير، الذي لا شبيه له ولا مثيل، اصطلاح عرف عند المتقدمين من العلماء، وجعلوه عنوانا لبعض مؤلفاتهم، كبدائع الفرائد لابن القيم، وغرر الفرائد ودرر القلائد للشريف مرتضى البغدادي، وقيد الشرائد ونظم الفرائد للشيخ عبد الوهاب بن أحمد بن وهبان الدمشقي.. وغير ذلك كثير.

ودراسة الفرائد دراسة بلاغية لم تحظ بدراسات كثيرة، ولم يتوفر على دراستها عديد من الباحثين – على مبلغ علمي– إلا ما كتبه الأستاذ الدكتور/ عبد الله عبد الغني سرحان في بحثه الذي جاء بعنوان: "الأسرار البلاغية في الفرائد القرآنية".

وقد اقتصر – في دراسته لهذه الفرائد – على جانب واحد منها، وهو الجانب المتعلق بالقصص القرآني –خاصة– دون غيره، وكذا ما كتبه الأستاذ الدكتور/ كمال عبد العزيز إبراهيم في بحثه: "بلاغة الفرائد الفذة في القرآن– المضارع نموذجاً".

أما المتقدمون من العلماء فلم يفردوا هذا الجانب من الدراسات القرآنية بمؤلف مستقل، يتوفر على جمعها ودراستها، ولم نجد لهم في ذلك إلا أقوالا مرسلة – كما قرره الدكتور/ عبد الله سرحان وأكده[1]– لا تتجاوز بضعة أسطر.

---

(١) معجم مقاييس اللغة لأحمد بن فارس: ٤/ ٥٠٠ (فرد)، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر – بيروت، الطبعة الأولى ١٣٩٩هـ – ١٩٧٩م.

(٢) لسان العرب لجمال الدين ابن منظور: ٣/ ٣٣٢ (فرد)، دار صادر– بيروت، الطبعة الثالثة ١٤١٤هـ – ١٩٩٤م.

فالسيوطي يقول في الإتقان: "الفرائد: مختصة بالفصاحة دون البلاغة لأنها الإتيان بلفظة تتنزل منزلة الفريد من العقد – وهي الجوهرة التي لا نظير لها – تدل على عظم فصاحة هذا الكلام، وقوة عارضته، وجزالة منطقه، وأصالة عربيته بحيث لو سقطت من الكلام عزت على الفصحاء غرابتها، ومنه لفظ (حصحص) في قوله: ﴿ ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ ﴾ {يوسف:٥١}، و(الرفث) في قوله تعالى: ﴿ أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ ﴾ {البقرة:١٨٧}، ولفظة (فُزِّع) في قوله تعالى: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ ﴾ {سبأ:٢٣}.."[٢].

كما تحدث ابن حجة الحموي عن الفرائد فقال: "الفرائد نوع لطيف مختص بالفصاحة دون البلاغة لأن المراد منه أن يأتي الناظم أو الناثر بلفظة فصيحة من كلام العرب العرباء تتنزل من الكلام منزلة الفرائد من العقد، وتدل على فصاحة المتكلم بها، بحيث إن تلك اللفظة لو سقطت من الكلام لم يسد غيرها مسدها، كقوله تعالى: ﴿ أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ ﴾ {البقرة:١٨٧}، فقوله تعالى "الرفث" فريدة لا يقوم غيرها مقامها، وكقوله تعالى: ﴿ هِىَ عَصَاىَ أَتَوَكَّؤُا۟ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِى ﴾ {طه:١٨}، فقوله سبحانه: ﴿ وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِى ﴾ فريدة يعز على الفصحاء أن يأتوا بمثلها في مكانها"[٣]. وابن حجة لم يتجاوز – فيما كتبه– عما ذكره السيوطي في الإتقان قبل ذلك.

وإذا كان جمال مفردات القرآن من مصدر إلهي، فإننا نفتش عن هذا الجمال داخل النص، فهذا يعني بالضبط سمو النظم القرآني في مضماره الأدبي وخلوده، وحجة القرآن الأولى من هذا الجانب هي اللسان العربي الفصيح، وطبيعة الفن طبيعة النفس الإنسانية؛ لذلك نلمس السر الإلهي في الكلام المبين من خلال الآثار الجلية والإشعاعات الدلالية التي تدل على وجوب الاعتراف بالبيان لمن علم البيان، هذا البيان يشتمل كل حين على الخير والحق والجمال دون انفصام.

---

(١) راجع: الأسرار البلاغية في الفرائد القرآنية للدكتور: عبد الله عبد الغني سرحان: ١٤، مركز التدبر للاستشارات التربوية والتعليمية– الرياض، الطبعة الأولى ١٤٣٣هـ – ٢٠١٢م.

(٢) الإتقان في علوم القرآن لجلال الدين السيوطي: ٣/ ٣١٩، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، الهيئة المصرية العامة للكتاب – القاهرة، الطبعة الأولى ١٣٩٤هـ – ١٩٧٤م.

(٣) خزانة الأدب لابن حجة الحموي: ٢/ ٢٩٧، تحقيق: عصام شقيو، دار ومكتبة الهلال – بيروت، الطبعة الأولى ١٩٨٧م.

ويقول الدكتور عبد الكريم الخطيب: "أفاض الله سبحانه عليها -الكلمات- هذا الفيض، ونفخ فيها من روحه، كما نفخ في عصا موسى، لكنه مع ذلك أبقى على تلك الكلمات طبيعتها التي يعرفها الناس منها، كما أبقى على عصا موسى طبيعتها كذلك"[1].

إن المفردة القرآنية سامية بجمال فكري وفني، وسامية بنسبتها إلى منزلها في إطار من البيان الذي يعيه العرب خاصة، فهنا حكم جمالي من خارج النص، ولهذا خصوصية لا يستساغ إنكارها، ومع أنه حكم خارجي فإن له موضوعية.

فعلى قدر ما تكون الجهة المبدعة قوية، تخرج الكلمات قوية مؤثرة، إذا استوعب المتلقي حيثيات المبدع، وهذا صحيح وإن دعت المناهج النقدية الحديثة إلى تنحية المبدع عن دائرة الدراسة الأدبية، كما في البنيوية ونظرية التلقي، وكما أرسى نقادنا القدامى هذا النهج، منطلقين من دراسة بلاغة القرآن الذي اقتضى صب العناية على المتلقي[2].

وهذا البحث يحاول أن يخطو خطوة أخرى في هذا الطريق، وأن يضع لبنة جديدة في بناء هذا الجانب من جوانب الدراسة في القرآن، وأن يكمل هذا الجهد الذي بدأه السابقون، لعله بهذه اللبنة – التي وضعها بجوار لبنات السابقين – أن يستنهض الهمم، ويستحث العزائم لإتمام الدراسة في هذا الجانب من جوانب الدراسة في القرآن الكريم، والله – تعالى– أسأل أن يكون من وراء القصد، وهو الهادي إلى سواء السبيل.

****

(١) إعجاز القرآن للدكتور/ عبد الكريم الخطيب: ٢/ ٢٩٥، دار الفكر العربي – القاهرة، الطبعة الأولى ١٩٦٤م.

(٢) راجع: دراسات فنية في القرآن الكريم للدكتور/ أحمد ياسوف: ٢٦ وما بعدها، دار المكتبي – سورية، الطبعة الأولى، ١٤٢٧هـ – ٢٠٠٦م.

الفصل الأول: من أسرار الفرائد القرآنية في سياق الحديث عن الجنة.

ويشتمل على ستة محاور:

المحور الأول: من أسرار الفرائد القرآنية في سياق الحديث عن وصف شراب الجنة.

المحور الثاني: من أسرار الفرائد القرآنية في سياق الحديث عن وصف فرش الجنة.

المحور الثالث: من أسرار الفرائد القرآنية في سياق الحديث عن وصف أشجار الجنة.

المحور الرابع: من أسرار الفرائد القرآنية في سياق الحديث عن وصف ماء الجنة.

المحور الخامس: من أسرار الفرائد القرآنية في سياق الحديث عن وصف نساء الجنة.

المحور السادس: من أسرار الفرائد القرآنية في سياق الحديث عن وصف هواء الجنة.

المحور الأول: من أسرار الفرائد القرآنية في وصف شراب الجنة

باستقراء الفرائد الواردة في سياق الحديث عن وصف شراب الجنة وجدته قد اشتمل على سبع فرائد لم تتكرر مطلقا مادة وصيغة، هي على ترتيب دراستها: (غول- آسن- عسل- زنجبيلا- دهاقا- رحيق- تسنيم).

الفريدة الأولى: "غول"، وجاءت في قوله تعالى: ﴿ لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ ﴾{الصافات:٤٧}.

وردت هذه الفريدة في سياق الحديث عن مظاهر النعيم الذي يرفل فيه عباد الله المخلصون، حيث يخدمون فلا يتكلفون شيئاً من الجهد في دار الراحة والرضوان والنعيم، فالولدان يطوفون عليهم بخمر لذيذة الطعم، جميلة المنظر، مترعة من الرحيق المختوم بالمسك، سالمة من ذهاب العقل والكدر.

والغول – كما يقول أحمد بن فارس: "يدل على ختل وأخذ من حيث لا يدرى. يقال: غاله يغوله: أخذه من حيث لم يدر. قالوا: والغول: بعد المفازة؛ لأنه يغتال من مر به"[1].

وجاء كلام المفسرين مطابقاً لما ذكره اللغويون يقول الألوسي: "الغول: إهلاك الشيء من حيث لا يحس به، يقال: غاله يغوله غولا واغتاله اغتيالاً، ومنه سمي السعلاة غولاً، والمراد: نفي أن يكون فيها ضرر أصلاً"[2].

وقد جاءت هذه اللفظة متفردة لما فيها من عموم الدلالة وسعتها، فهذه الفريدة تشير إلى أن خمر الجنة ليس فيها صداع رأس ولا وجع بطن، ولا تغتال عقولهم فتذهب بها، ويضاف إلى ذلك – أيضاً- أنه ليس فيها إثم ولا شيء من هذه الآفات؛ لأن كل من ناله شيء من هذه الآفات قيل: قد غالته غول، فنفي الغول عنها يعم جميع هذه الأشياء[3].

---

(١) معجم مقاييس اللغة لأحمد بن فارس: ٤/ ٤٠٢، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر – بيروت، ١٣٩٩هـ – ١٩٧٩م.

(٢) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني لشهاب الدين محمود الألوسي: ١٢/ ٨٥، تحقيق: علي عبد الباري عطية، دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة الأولى ١٤١٥هـ.

(٣) راجع: تفسير الطبري: ٢١/ ٣٧ وما بعدها، تحقيق: أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة – بيروت، الطبعة الأولى ١٤٢٠هـ-٢٠٠٠م، وزاد المسير في التفسير لأبي الفرج الجوزي: ٣/ ٥٤١، تحقيق: عبد الرازق المهدي، دار الكتاب العربي – بيروت، الطبعة الأولى ١٤٢٢هـ.

فهذه الفريدة تؤكد على تفرد خمر الجنة في صفاتها وسماتها وخصائصها، فلا تغتال عقولهم ولا تزيل حشمتهم، ولا ترفع عنهم هيبتهم "فقوم يشربون وهم بوصف الستر، وآخرون يسقون – في الحضور– وهم على نعت القرب"[١].

على أن مجيء هذه الفريدة في هذا المقام ينسجم ويتطابق مع مقتضى حال الجنة في الخلود وعدم الهلاك والفناء؛ لأن هذه الكلمة مأخوذة من "غاله يغوله غولا: إذا أهلكه وأفسده"[٢].

كما أنها تدل على خلو تلك الخمر من جميع مشوبات الهلاك والمفاسد، حتى لو كان نذرا يسيرا، بدلالة تنكير الكلمة، وهذا فيه ما فيه من المبالغة في كمال نعيم الجنة وامتداحه، فلا تشوبه أدنى شائبة من الكدورة التي تنغصه، فخمر الجنة "لا أذى فيه، ولا مكروه على شاربيها في جسم ولا عقل، ولا غير ذلك"[٣].

ولا يخفى أن هذه الفريدة تشي بشيء آخر وهو شدة سوغ خمر الجنة ولطفها، وسرعة سريانها في البدن؛ ولذا فقد ذكر السمين الحلبي أن أصل الغول "إهلاك الشيء من حيث لا يحس به، ومنه: اغتاله، وقتله غيلة: إذا قتله من حيث لا يشعر به"[٤].

فهذه الكلمة فيها مبالغة في نفي الضرر أصلا. يقول ابن منظور: "كل ما أهلك الإنسان فهو غول"[٥].

****

الفريدة الثانية: "آسن"، وجاءت في قوله تعالى: ﴿ مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ ﴾ {محمد:١٥}.

---

(١) لطائف الإشارات لعبد الكريم القشيري: ٣/ ٢٣٣، تحقيق: إبراهيم البسيوني، الهيئة المصرية العامة للكتاب – القاهرة، الطبعة الثالثة.

(٢) راجع: المفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهاني: ٦٢٠ (غول)، تحقيق: صفوان عدنان الداودي، دار القلم – دمشق، الطبعة الأولى ١٤١٢هـ.

(٣) تفسير الطبري: ٢١/ ٣٩.

(٤) عمدة الحفاظ في تفسير أشرف الألفاظ للسمين الحلبي:٣/ ١٨١، تحقيق: محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية– بيروت، الطبعة الأولى ١٤١٧هـ –١٩٩٦م.

(٥) لسان العرب لجمال الدين ابن منظور: ١١/ ٥٠٧ (غول)، دار صادر– بيروت، الطبعة الثالثة ١٤١٤هـ.

وردت هذه الآية في سياق الحديث عن الكفر والإيمان، فبعد أن ذكر حال المؤمنين وحال الكافرين في الدنيا والآخرة، وتبين الفرق بين متاع المؤمنين بالطيبات وتمتع الكافرين بلذائذ الأرض كالحيوان؛ سيقت هذه الآية لشرح صفة الجنة ومحاسنها التي وعدها المتقون، وبيان كيفية أنهارها التي أشير إلى جريانها من تحتها.

والآسن – كما يقول اللغويون – أي: متغير الرائحة "يقال: أَسَن الماء يأسِن ويأسُن أُسونا فهو آسن، إذا تغيرت رائحته تغيرا منكرا يتأذى بها"[١].

وهذا المعنى هو الذي أقره المفسرون واتفقت كلمتهم عليه، ما بين مسهب في تفصيل العبارة وموجز فيها. يقول الطبري: "أنهار من ماء غير متغير الريح، يقال منه: قد أسن ماء هذه البئر: إذا تغيرت ريح مائها فأنتنت، فهو يأسَن أسنا، وكذلك يقال للرجل إذا أصابته ريح منتنة: قد أسِن فهو يأسَن"[٢].

وقد آثر الذكر الحكيم التعبير بهذه الفريدة على غيرها لأمور عدة منها:

- المبالغة بسبب ما فيها من عموم الدلالة في الطعم والريح. يقول الزمخشري: "أسن الماء وأجن: إذا تغير طعمه وريحه"[٣]، وهي بذلك تكون أوفى دلالة وأكثر ثراء من غيرها.
- التأكيد بما فيها من الدلالة على الديمومة والثبوت، فقد نفي التغير عن أنهار الجنة في المستقبل، بدلالة قراءة الجمهور[٤] وكذا نفي الحال – أيضاً – بدلالة قراءة الجمهور وقراءة ابن كثير: (أَسِن) – بوزن حَذِر– صفة مشبهة أو صيغة مبالغة، فتدل على الثبوت.

على أن التأكيد على نفي تغير الماء – هنا – جاء بالطريق الأبلغ؛ لأنه إذا نفي عنه التغير القليل، لما أن الآسن – كما ذكر ابن منظور – هو "تغير الماء غير أنه شروب"[٥] – وهذا يعني أنه لم يتغير تغيرا ظاهرا– فإن هذا يستلزم نفي الكثير، وإثبات المعنى على مدراج اللزوم آكد وأبلغ في إثباته بالطريق المباشر.

---

(١) عمدة الحافظ: ١/ ٩١، وراجع: لسان العرب: ١٣/ ١٦ (أسن).

(٢) تفسير الطبري: ٢٢/ ١٦٦، والتفسير الوسيط لأبي الحسن الواحدي النيسابوري: ٤/ ١٢٢، تحقيق وتعليق الشيخ: عادل أحمد عبد الواحد وآخرين، دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة الأولى ١٤١٥هـ – ١٩٩٤م، وزاد المسير: ٤/ ١١٨، والدر المنثور لجلال الدين السيوطي: ٧/ ٤٦٤، دار الفكر – بيروت، (د.ت)، وروح المعاني: ١٣/ ٢٠٤.

(٣) الكشاف لجار الله الزمخشري: ٤/ ٣٢٠، دار الكتاب العربي – بيروت، الطبعة الثالثة ١٤٠٧هـ.

(٤) قرأ ابن كثير بغير مد بعد الهمزة، وقرأ الباقون بالمد. راجع: النشر في القراءات العشر لشمس الدين ابن الجزري: ٢/ ٣٧٤، تحقيق: علي محمد الضباع، دار الكتب العلمية – بيروت، نسخة مصورة عن المطبعة التجارية الكبرى.

(٥) لسان العرب: ١٣/ ١٦ (أسن).

وهذه الكلمة فيها نكتة لطيفة وإشارة دقيقة توحي بتفرد أنهار الجنة عن أنهار الدنيا وأنها منقطعة القرين والخريد، ففي الوقت الذي تهدأ فيه أنهار الدنيا ويقل جريانها – أو تتوقف بالكلية – تظل أنهار الجنة جارية، لا يعتريها البطء أو التوقف؛ يقال: "تأسن علي تأسنا: اعتل وأبطأ"[1].

ويلحظ أن صفة "جريان الماء" للأنهار لم تذكر صراحة في هذا الموضع، وهو ما قد يوهم بتغير صفة ماء الجنة، فجاءت هذه الفريدة لنفي هذا الوهم، وإزالة الارتياب الذي قد يعلق ببعض الأذهان.

فأكمل محاسن الجنة جريان الماء في خلالها، وذلك شيء اجتمع البشر كلهم على أنه من أنفس المناظر؛ لأن في الماء طبيعة الحياة؛ ولأن الناظر يرى منظراً بديعا وشيئاً لذيذاً. يقول الزمخشري: "ولولا أن الماء الجاري من النعمة العظمى واللذة الكبرى، وأن الجنان والرياض – وإن كانت آنق شيء وأحسنه– لا تروق النواظر، ولا تبهج الأنفس، ولا تجلب الأريحية والنشاط حتى يجري فيها الماء، وإن كان الأنس الأعظم فائتا، والسرور الأوفر مفقوداً، وكانت كتماثيل لا روح فيها، وصور لا حياة لها، لما جاء تعالى بذكر الجنات مشفوعا بذكر الأنهار الجارية من تحتها مسوقين على قرن واحد كالشيئين لابد لأحدهما من صاحبه، ولما قدمه على سائر نعوتها"[2].

كما أن هذه الفريدة هي التي تتواءم مع سياق وصف ما في الجنة من أشربة في سورة محمد، فقد جاء متفرداً في ذلك دون غيره من مواضع القرآن، حيث لم يجمع بين وصف ماء الجنة ولبنها وخمرها وعسلها إلا في هذا الموضع.

على أن هذه الفريدة فيها ملمح آخر وهو تحاشي التكرار وتجنب إعادة اللفظ لو قيل: "من ماء لم يتغير.."، فقد جاء هذا القيد في وصف لبن أنهار الجنة بعد ذلك.

ونفي الأُسُون بـ"غير" آكد في النفي وأبلغ من غيره من أدوات النفي الأخرى، وفيها إيجاز بديع واختصار لطيف.

****

الفريدة الثالثة: "عسل"، وجاءت في الآية نفسها في قوله تعالى: ﴿وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى﴾ {محمد:١٥}.

---

(١) الجامع لأحكام القرآن لشمس الدين القرطبي: ١٦/ ٢٣٦، تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، دار الكتب المصرية – القاهرة، الطبعة الثانية ١٣٧٤هـ – ١٩١٤م.

(٢) الكشاف: ١/ ١٠٦ وما بعدها.

والعسل في الدنيا هو لعاب النحل، وقد جعله الله – تعالىٰ– بلطفه شفاء للناس، والعسل المصفىٰ هو الذي لا يخالطه الشمع والقذاء والعكر والكدر، وقد نقل علماء اللغة في العسل التذكير والتأنيث، وجاء القرآن علىٰ التذكير، ويصغر علىٰ "عسيلة" علىٰ لغة التأنيث، ذهاباً إلىٰ أنها قطعة من الجنس وطائفة منه.(١)

وقد سيقت هذه الآية – كما سبق بيانه – لشرح محاسن الجنة التي أعدها الله للمتقين، والمقام – هنا – لتفصيل أشربة الجنة وصفاتها العجيبة الشأن التي لا يقادر قدرها ولا يوجد نظيرها، وذكر هذه الفريدة – في هذا المقام – هو الذي تكتمل به مظاهر النعيم الذي أظل أهل الجنة وأحاطهم.

فمجيء لفظ "العسل" – هنا – فيه زيادة تحسير لأهل النار وتنديم لهم؛ بسبب ما فاتهم من وفر ودثر في مقابل ما آل إليه حالهم من أهوال وجحيم.

وجاء القيد بقوله "مصفىٰ" للتأكيد علىٰ تفرد هذه الفريدة، وعدم مشابهة عسل الدنيا لعسل أنهار الجنة، حيث لم يخرج من بطون النحل فيخالطه الشمع وغيره، وإنما خلق في الأنهار ابتداء، سائلاً جاريا سيل الماء واللبن المخلوقين فيها، فهو من أجل ذلك مصفىٰ، قد صفاه الله من الأقذاء التي تكون في عسل أهل الدنيا – الذي لا يصفو من الأقذاء إلا بعد التصفية– لأنه كان في شمع فصفي منه(٢).

فالمراد من القيد – هنا– تصفية هذا العسل مما يخالفه حتىٰ يكون خالصاً "وفي هذا تمثيل لما يجري مجرىٰ الأشربة في الجنة بأنواع ما يستطاب منها ويستلذ في الدنيا بالتخلية عما ينغصها وينقصها، والتخلية بما يوجب غزارتها ودوامها""(٣).

والمتأمل في هذه الآية يجد أن الترتيب بين الأشربة جاء علىٰ طريقة البدء والترقي من الأعلىٰ إلىٰ الأدنىٰ، فبدأ بالماء لأنه سر الحياة وأعظم مظاهر النعيم في الجنة، وثنىٰ باللبن وهو رأس الأطعمة "فهو طعام وشراب"، ثم ثلث بما يتلذذ ويتفكه به، وهو الخمر والعسل.

علىٰ أن العلامة الألوسي كان ذا حس مرهف وذوق عال، حيث يقول عن سر الترتيب بين هذه الأشربة: "وبدىء بالماء لأنه في الدنيا مما لا يستغنىٰ عنه، ثم باللبن إذ كان يجري مجرىٰ المطعم لكثير من

---

(١) راجع: لسان العرب: ١١/ ٤٤٤ (عسل)، وفتح البيان في مقاصد القرآن لمحمد صديق خان: ١٣/ ٦٠ وما بعدها، عني بطبعة وقدم له وراجعه: عبد الله بن إبراهيم الأنصاري، المكتبة العصرية للطباعة والنشر – بيروت، الطبعة الأولىٰ ١٤١٢هـ – ١٩٩٢م.

(٢) راجع: تفسير الطبري: ٢٢/ ١٦٨، والكشاف: ٤/ ٣٢٢.

(٣) تفسير أبي السعود: ٨/ ٩٦، دار إحياء التراث العربي – بيروت، (د.ت).

العرب في كثير من أوقاتهم، ثم بالخمر لأنه إذا حصل الري والمطعوم تشوفت النفس إلى ما يلتذ به، ثم بالعسل لأن فيه الشفاء في الدنيا مما يعرض من المشروب والمطعوم، فهو متأخر في الرتبة"[١].

ولعل السر في تقديم المشروب على المطعوم والتفصيل فيه؛ لأن التلذذ والتفكه به أظهر، ووقوع البهجة والسرور به أسبق.

كما أن تقديم المشروب على المطعوم يحدث نوعاً من التقابل بين المشروب في أول الآية[٢] والمشروب في آخرها[٣] – أيضاً.

فالأول من جنس اللذة والنعيم، والآخر من جنس العذاب والإهانة، وهذا التقابل يعمل على تناغم الجرس وتناسق الإيقاع في سياق الآية الكريمة.

****

الفريدة الرابعة: "زنجبيلا"، وقد وردت في قوله تعالى: ﴿وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا﴾ {الإنسان:١٧}.

و"الزنجبيل" كلمة معربة، وأصلها بالكاف الأعجمية عوض عن الجيم. قال الجواليقي والثعالبي: هي فارسية، وهو اسم لجذور مثل جذور السُعْر – بضم السين وسكون العين– تكون في الأرض كالجزر الدقيق واللفت الدقيق، لونها إلى البياض، لها نبت له زهر، وهي ذات رائحة عطرية طيبة، وطعمها شبيه بطعم الفلفل.[٤]

ونقل المفسرون كلام اللغويين وأضافوا إليه سبب حب العرب له وتلذذهم به. يقول الألوسي: "والزنجبيل: نبت في أرض عمان، وهو عروق تسري في الأرض وليس شجرة، ومنه يحمل من بلاد الزنج

---

(١) روح المعاني: ١٣/ ٢٠٥.

(٢) وهو أنهار الماء غير الآسن، وأنهار اللبن الذي لم يتغير طعمه، وأنهار الخمر التي فيها لذة للشاربين، وأنهار العسل المصفى.

(٣) وهو ماء الحميم الذي يشوي الوجوه ويقطع الأمعاء.

(٤) راجع: تهذيب اللغة لأبي منصور الأزهري: ١١/ ١٧٧ (باب الجيم فصل الزاي)، تحقيق: محمد عوض مرعب، دار إحياء التراث العربي– بيروت، الطبعة الأولى ٢٠٠١م، والمحكم والمحيط الأعظم لابن سيده: ٧/ ٦٠٠، تحقيق الدكتور/ عبد الحميد هنداوي، دار الكتب العلمية– بيروت، الطبعة الأولى ١٤٢١هـ – ٢٠٠٠م، ولسان العرب: ١١/ ٣١٢ وما بعدها (زنجبل).

والصين – وهو الأجود– وكانت العرب تحبه لأنه يوجب لذعاً في اللسان إذا مزج بالشراب فيلتذون؛ ولذا يذكرونه في وصف رضاب النساء، يقول الأعشى[١]:

كَأَنَّ القُرُنْفُلَ والزَّنْجَبِيـ ـلَ بَاتَا بِفِيهَا وَأَرْيًا مَشُورَا[٢]

فالتعبير بهذه الفريدة للمبالغة في تصوير تفكه أهل الجنة، وتمام نعيمهم، ونهاية لذتهم؛ لما فيها من عموم الدلالة وسعتها؛ لأن هذه الفريدة تشمل طعم الشراب ورائحته، كما أنها قد تكون اسما للعين التي منها مزج شراب الأبرار. يقول الطبري: "يمزج لهم شرابهم بالزنجبيل، وعن مجاهد قال: يأثر لهم ما كانوا يشربون في الدنيا فيحببه إليهم، وقال بعضهم: الزنجبيل اسم للعين التي منها مزج شراب الأبرار"[٣].

وكانت العرب تستلذ من الشراب ما يمزج بالزنجبيل "لطيب رائحته؛ لأنه يحذو اللسان، ويهضم المأكول، فرُغِّبوا في نعيم الآخرة بما اعتقدوه نهاية النعمة والطيب"[٤]، ومن ذلك قول المسيب بن علس يصف ثغر المرأة[٥]:

وكَأَنَّ طعْمَ الزَّنْجَبيلِ بِهِ إِذْ ذُقْتَهُ وسَلَافةَ الخَمْرِ

ولعل الوجه في تأخير ذكر ما يمزج به الزنجبيل – عما يمزج به الكافور– أن المقصود الأهم حال الدخول البرودة؛ لهجوم العطش عليهم من حر العرصات وعبور الصراط، وبعد استيفاء حظوظهم من أنواع نعيمها ومطعوماتها تميل طباعهم إلى الأشربة التي تهيج الاشتهاء، وتعين على تهنئة ما تناولوه من المطعومات، ويلتذ الطباع بشربها[٦].

ويلحظ أنه ذكر "يسقون" – هنا – دون "يشربون" لأنه الأنسب بما تقدمه من قوله تعالى: "ويطاف عليهم... الآية"؛ فإن الشراب يحمل إليهم ويسقونه، "ويمكن أن يكون فيه رمز إلى أن هذه

---

(١) هذا البيت من قصيدة يمدح بها هوذة بن علي الحنفي، والأرى: عسل النحل، وشار العسل واشتاره: جمعه. يريد الشاعر أن يشبه خلط رضاب تلك المرأة البارد العذب بالزنجبيل أو عسل النحل. رجع ديوان الأعشى: ٩٣ وما بعدها، تحقيق وشرح وتعليق الدكتور: محمد حسين، مكتبة الآداب – القاهرة، الطبعة الأولى (د.ت).

(٢) روح المعاني: ١٥/ ١٧٧.

(٣) تفسير الطبري: ٢٤/ ١٧.

(٤) تفسير القرطبي: ١٩/ ١٤٢.

(٥) ديوانه: ٨٣، جمعه وحققه ودرسه الدكتور: عبد الرحمن محمد الوصيفي، مكتبة الآداب– القاهرة، الطبعة الأولى ٢٠٠٣م.

(٦) راجع: روح البيان: ١٠/ ٢٧٢.

الكأس أعلى شأناً من الكأس الأولى، وعن الكلبي: يسقى بجامين: الأول مزاجه الكافور، والثاني مزاجه الزنجبيل"[١].

****

الفريدة الخامسة: "دهاقا"، وقد وردت في قوله تعالى: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ﴿٣١﴾ حَدَائِقَ وَأَعْنَابًا ﴿٣٢﴾ وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا ﴿٣٣﴾ وَكَأْسًا دِهَاقًا﴾ {النبأ: ٣١- ٣٤}.

يذكر النظم الكريم في هذه الآيات جزاء من اتقى مخالفة أمر الله بأن له مفازا ونجاة وخلاصا مما فيه أهل النار، فقد أعد له بساتين فيها أنواع الأشجار المثمرة، مما تشتهيها النفوس، وتقر به العيون، وحور كواعب لا تفاوت بينهن في السن ولا في الحسن، وكأس من الخمر مترعة ملأى، متتابعة على شاربيها.

وأصل الدهق: شدة الضغط، ويطلق – أيضاً – على متابعة الشد، ودهق الماء وأدهقه: أفرغه إفراغا شديدا، وأدهق الكأس: شد ملأها، وكأس دهاق: مترعة ممتلئة[٢].

ولما كانت التقوى من أعلى مراتب الإيمان، جاء جزاء المتقين – في الكمال والتمام– على المرتبة نفسها؛ لأن الجزاء من جنس العمل، فوصف الكأس بـ "الدهاق" دون الامتلاء للمبالغة في تصوير كمال نعيم أهل الجنة، وتمام لذتهم، وفرط تفكههم، بما تتسم به هذه الفريدة من عموم الدلالة وسعتها.

فهذه الفريدة تشير إلى معنى الامتلاء الشديد – أو الامتراع الشديد – والتتابع والكثرة والصفاء. يقول الطبري: "وأصله من الدهق: وهو متابعة الضغط على الإنسان بشدة وعنف، وكذلك الكأس الدهاق: متابعتها على شاربيها بكثرة وامتلاء"[٣].

ومن عموم الدلالة التي تفيدها تلك الفريدة – أيضاً – أنها تشير إلى أن ما في الكأس أفضل الشراب وأوله وأصفاه، يقول ابن منظور: "دهق لي من المال دهقة: أعطاني منه صدراً"[٤].

على أن هذه الفريدة تؤكد على أن الكأس مملوءة خمراً، دون تقتير؛ لأن الخمر كانت عزيزة فلا يكيل الحانوي للشارب إلا بمقدار، فإذا كانت الكأس ملأى كان ذلك أسر للشارب[٥]، ولا يخفى ما في هذا الأمر

---

(١) روح المعاني: ١٥/ ١٧٧.

(٢) راجع: المفردات للراغب: ٣٢٠، ولسان العرب: ١٠/ ١٠٦ (دهق)، وعمدة الحفاظ: ٢/ ٢٨.

(٣) تفسير الطبري: ٢٤/ ١٧١.

(٤) راجع: التحرير والتنوير: ٣٠/ ٤٥.

(٥) لسان العرب: ٤/ ١٢٠.

من استنهاض لعوالي الهمم، بدعوتهم إلى المثابرة على أعمال الخير، وازديادهم من القربات والطاعات، كما أن فيها إيلاماً لأنفس الضالين المكذبين.

وحرف "القاف" – في بنية هذه الفريدة – يصور المعنى أبلغ تصوير، فالصوت هو الذي يوحي الآن ويرسم الحركة في عملية نطق تحاكي الحدث؛ فإن حرف "القاف" المفخم – الذي يتبعه صوت الألف– يشير إلى امتلاء الكأس ومتابعتها على شاربيها بكثرة، ولا يكون هذا التصوير في كلمة سوى "دهاقا".

كما أن هذه الفريدة تختص بالكأس دون غيرها، بخلاف الملء، فإنه يكون مع الكأس ومع غيرها، حسيا ومعنويا، مع المشروب ومع المطعوم[1]، أما الدهق فإنه من خصوصيات المشروب فقط، ومن ملازمات الكأس؛ لاتصافها به؛ ومن ثم تكون هذه اللفظة ألصق بمقام تفصيل مفاز المتقين وأوفق لبيانه.

ولا يخفى أنه في اختيار هذه الفريدة محافظة على نسق الفواصل، والقالب الصوتي يتكرر ترديدا ونغما، من غير أن يؤدي هذا إلى رتابة في الإيقاع مملة، فثمة تنويع تبعاً للمضمون، وحفاظاً على انتباه القارئ، "فالقرآن الكريم حيث يلجأ إلى كسر هذه الرتابة يثري التعبير بأنغام موسيقية متنوعة، تنحدر فيها موجات النغم، وتتنوع أصداؤه، وتتصاعد درجاته باستعمال وسيلتين:

١- المراوحة: آية طويلة، فقصيرة، فطويلة، وهكذا المراوحة بين القرآن الكريم في الكم الموسيقي.

٢- التصاعد النغمي البدء بالفواصل القصيرة وإتباعها بفواصل أطول فأطول"[2].

والمتأمل لكلام الدارسين – قديما وحديثا – يؤكد أنهم لم ينكروا مراعاة الفواصل القرآنية للجانب الموسيقي تماماً، خصوصاً إذا أمعنا النظر في سياق كلامهم، فنجد عبارة "لمجرد مراعاة الفواصل" مطردة،

---

(١) ومن ذلك قوله تعالى: ﴿لَوِ ٱطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا﴾ {الكهف:١٨}، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ ٱلْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ ٱفْتَدَىٰ بِهِۦٓ﴾ {آل عمران:٩١}، وقوله تعالى: ﴿قَالَ ٱخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا ۖ لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ {الأعراف:١٧}، وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ﴾ {ق:٣}، وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا ٱلضَّآلُّونَ ٱلْمُكَذِّبُونَ ﴿٥١﴾ لَآكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ ﴿٥٢﴾ فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ﴾ {الواقعة:٥١-٥٣}.

(٢) لغة القرآن الكريم في جزء عم، د/ محمود أحمد نحلة: ٣٦٦، دار النهضة العربية – بيروت، الطبعة الأولى ١٩٨١م.

فهم على يقين بانسجام الشكل والمضمون، إلا أنهم يقدمون المضمون على الشكل، وهذا أمر محتم، خصوصا في القرآن الكريم[١].

واختصاص الكأس بوصف "دهاقا" يتناغم مع خصوصية التقوى، واختصاص المتقين بهذا الجزاء الذي أعد لهم واقتصر عليهم في جنات النعيم.

على أن وصف الكأس بالدهق مجاز عقلي علاقته المصدرية؛ فإن الكأس مدهقة لا داهقة، ويفيد هذا الإسناد ملء الإناء من كثرة ما صب فيه، وما أعده الله للمتقين من خير عظيم، وثواب جليل.

****

الفريدة السادسة والسابعة: "رحيق" و "تسنيم"، وقد وردتا في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿٢٢﴾ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٢٣﴾ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ ٱلنَّعِيمِ ﴿٢٤﴾ يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ ﴿٢٥﴾ خِتَـٰمُهُۥ مِسْكٌ ۚ وَفِى ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَـٰفِسُونَ ﴿٢٦﴾ وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسْنِيمٍ﴾ {المطففين: ٢٢-٢٧}.

فالبررة المطيعون لربهم، المصدقون بما جاء على لسان رسوله؛ في لذة، وخفض عيش، ورحة بال، واطمئنان نفس، وإذا نظرت إليهم أدركت أنهم أهل نعمة، حيث يسقون خمراً خالصة لا غش فيها، تمزج بأرفع شراب في الجنة، وينصب عليهم من الأعالي.

والرحيق – كما يقول اللغويون – من أسماء الخمر، وهو من أعتق الخمور وأفضلها، وقيل هو صفوة الخمر، وقيل هو الشراب الذي لا غش فيه[٢].

وذهب معظم المفسرين إلى أن الرحيق هو الشراب الخالص الذي لا غش فيه.[٣]

---

(١) راجع في ذلك على سبيل المثال: ثلاث رسائل في الإعجاز للرماني والخطابي وعبد القاهر الجرجاني: ٨٩، تحقيق: د/ محمد خلف الله، د/ محمد زغلول سلام، دار المعارف- مصر، الطبعة الثالثة ١٩٧٦م، وسر الفصاحة لابن سنان الخفاجي: ٢٠٥، تعليق الشيخ/ عبد المتعال الصعيدي، مطبعة محمد علي صبيح – القاهرة، الطبعة الأولى ١٩٥٢م، والمحكم لابن سيده: ١/ ٣٩٠، تحقيق: عبد الحميد هنداوي، دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢١هـ- ٢٠٠٠م، ومن بلاغة القرآن لأحمد بدوي: ٨٩، والتفسير البياني للدكتورة/ عائشة عبد الرحمن: ٢/ ١١٠ وما بعدها، دار المعارف – مصر، الطبعة الأولى ١٩٧١م.

(٢) راجع: الصحاح: ٤/ ١٤٨٠ (رحق)، لسان العرب: ١٠/ ١١٤ (رحق).

(٣) راجع: تفسير الطبري: ٢٤/ ٢٩٦ وما بعدها، والكشاف: ٤/ ٧٢٣، والقرطبي: ١٩/ ٢٦٤، وتفسير أبي السعود: ٩/ ١٢٨، وروح المعاني: ١٥/ ٢٨٢.

فالتعبير بهذه الفريدة فيه دلالة على الرائحة الطيبة، والطعم اللذيذ، وعدم اقترانه بدواعي الفساد، وخلوص هذا الشراب من كافة المنغصات الموجودة في شراب الدنيا، فالخمر التي تجمع هذه الصفات كلها تكون أكمل في التلذذ، وأبلغ في الدلالة على التنعم وفرط التفكه.

وفي اختيار هذه الفريدة إشارة – أيضاً – إلى التناسب بين الجزاء والعمل الذي يترتب عليه؛ إذ البر فيه خلوص – أيضاً– والرحيق – كما يقول الزمخشري– هو "الشراب الخالص الذي لا غش فيه"[(١)]، فالمقربون يشربون من عين التسنيم خالصة، فإنهم كما أخلصوا أنفسهم وأعمالهم لله أخلص لهم الشراب، والجزاء من جنس العمل.

ثم إن صفاء الخمر وخلوصها من كل شوب ودنس كأنه ينعكس على نضارة الوجه وبهائه، فهؤلاء البررة لما كانوا مطيعين لربهم – فيما أمر به ونهى عنه– كان جزاؤهم أنهم يتقلبون في النعيم، تعرف في وجوههم آثار النعمة وأحكام البهجة، بحيث لا يختص برؤيته راء دون راء.

ومن أسرار التعبير بهذه الفريدة – أيضاً – مناسبتها للقيد بعدها؛ إذ المختوم صفة غالبة على الرحيق الذي ختم أوانيه وأكوابه بالمسك مكان الطين، وفيه تمثيل لكمال نفاسته، أما الخمر فلا توصف بهذا الوصف[(٢)].

وأما التسنيم فقد ذكر اللغويون أنها عين في الجنة، رفيع القدر، وبه فسر قوله تعالى: ﭽﭑ ﭒ ﭓ ﭔﭼ {الإنسان:٦}، وقوله: ﭽﯪ ﯫ ﯬ ﯭﭼ {المطففين:٢٨}، وقيل معناه: من ماء متسنم، أي: عينا تأتيهم من علو تتسنم عليهم من الغرف، وأصل التسنيم في اللغة: الارتفاع، فهي عين ماء تجري من علو إلى أسفل، ومنه: سنام البعير لعلوه من بدنه، وكذلك تسنيم القبور[(٣)].

وهذا ما قرره المفسرون وارتضوه في تبيانهم لهذه الفريدة. يقول أبو السعود: "والتسنيم علم لعين بعينها، سميت به إما لأنها أرفع شراب في الجنة، وإما لأنها تأتيهم من فوق"[(٤)].

ولعل سر التعبير بهذه الفريدة – في هذا المقام – التأكيد على أن هؤلاء المقربين لا يصيبهم نصب ولا وصب في تناولهم لهذا الشراب؛ لأنه يجري في الهواء ويصب من فوق الغرف في آنيتهم، ولا يخفى ما في هذا

---

(١) الكشاف: ٤/ ٧٢٣.

(٢) وصف الخمر بأنها لذة للشاربين كما في قوله تعالى: ﴿ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ ﴾ {محمد:١٥}.

(٣) راجع: المفردات: ٤٢٩، ولسان العرب: ١٢/ ٣٠٧ (سنم)، وعمدة الحفاظ: ٢/ ٢٢٦.

(٤) تفسير أبي السعود: ٩/ ١٢٩.

الأمر من إشارة إلى رفعة من يشرب بها، فهؤلاء المقربون يشربونها صرفاً – لأنهم لم يشتغلوا بغير الله– وتمزج لسائر أهل الجنة.

ثم إن التلذذ بهذا المزج يمتد إلى مدة طويلة، وأمد بعيد، يدل على ذلك امتداد النفس بصوت الياء في بنية هذه الفريدة، "وإنما كان شراب المقربين صرف التسنيم لاشتغالهم عن الرحيق المختوم بمحبة الحي القيوم، فهي الرحيق التي لا يقاس بها رحيق، والمدامة التي تواصى على شربها ذوو الأذواق"[1].

على أن هذه الفريدة فيها دلالة – أيضاً – على جمال المنظر وبهاء المخبر، إلى جوار جودة الطعم وخلوص اللون؛ إذ إن هذا الشراب يصب في آنيتهم من علو. يقول الألوسي: "وروي أنها تجري في الهواء متسنمة فتنصب في أوانيهم"[2]؛ ولذا فقد وجه العلماء هذه التسمية بأن هذه العين تصب على جنابهم من علو، فكأنها سنام.

****

(١) روح المعاني: ١٥/ ٢٨٣.

(٢) السابق نفسه والصفحة نفسها.

المحور الثاني: من أسرار الفرائد القرآنية في وصف فرش الجنة

وقد ورد في هذا السياق خمس فرائد هي: (رفرف- عبقري- موضونة- نمارق- زرابي).

وسوف نعرض لها حسب ترتيبها السابق، فنقول وبالله التوفيق:

الفريدة الأولى والثانية: "رفرف" و "عبقري"، وقد وردتا في قوله تعالى: ﴿ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ ﴾ {الرحمن:٧٦}.

فأصحاب الجنتين يتكئون على ثياب ناعمة وفرش رقيقة النسج من الديباج، ووسائد عظيمة، وبسط لها أطراف فاخرة، غاية في كمال الصنعة وحسن المنظر.

وقد ذكر اللغويون لكلمة "رفرف" معاني عديدة، يقول السمين الحلبي: "قوله تعالى: (رفرف خضر) قيل: هي الثياب التي يتكأ عليها وتفترش، وعن الحسن: المخاد، وقيل: هي أطراف الفسطاط والخباء الواقعة على الأرض دون الأطناب والأوتاد، شبهت بالرياض من النبات، وأصل ذلك من رفيف الشجر، وهو انتشاب أغصانه، ورف الطير: نشر جناحيه، ومضارعه يرِف بالكسر، ورف فرخه: إذا نشر جناحيه متفقداً له، ومضارعه يرُف بالضم"[(١)].

ولم يخرج حديث المفسرين حول هذه اللفظة عن تلك المعاني، يقول العلامة أبو السعود: "الرفرف هو ما تدلى من الأسرة من أعالي الثياب، وقيل: هو ضرب من البُسُط أو البُسَط، وقيل: الوسائد، وقيل: النمارق، وقيل: كل ثوب عريض رفرف، وقيل لأطراف البسط وفضول الفسطاط: رفارف"[(٢)].

ويلاحظ أن هذه المعاني – التي ذكرها اللغويون والمفسرون لهذه الفريدة – متقاربة. إذاً لماذا لم يعبر بواحدة منها وآثر النظم الكريم التعبير بتلك الفريدة؟

لعل السبب في ذلك أن ذكر هذه الفريدة – هنا – ينسجم مع ذكر الخيام قبلها[(٣)]، فإن "الرفرف" هي طرف الفسطاط والخباء الواقع على الأرض – دون الأطناب والأوتاد – كما يقول الراغب[(٤)].

وتشير هذه الفريدة – أيضاً – إلى التفاوت بين نعيم الجنتين المذكورتين، فقد وصف الجنة السابقة بقوله: ﴿ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ فُرُشٍۭ بَطَآئِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ ﴾ {الرحمن:٥٤}، فالرفرف: الدقيق من الديباج، والإستبرق:

---

(١) عمدة الحفاظ: ٢/ ١٠١.

(٢) تفسير أبي السعود: ٨/ ١٨٧.

(٣) وذلك في قوله تعالى: ﴿ حُورٌ مَّقْصُورَٰتٌ فِى ٱلْخِيَامِ ﴾ {الرحمن:٧٢}.

(٤) المفردات: ٣٥٩.

الغليظ منه، وقد ذكر بطائن الأولى بأنها من إستبرق، ولم يذكر ظهائرها لعلوها، وللإشارة – أيضاً – إلى أن الوصف لا يرقى إليها. يقول الزمخشري: "وإذا كانت البطائن من إستبرق فما ظنك بالظهائر؟"[١].

وفي هذه الفريدة – أيضاً – إيحاء بسعة هذه البسط وامتدادها وطولها، وهذا معنى مستوحى من دلالتها اللغوية، فإنها مأخوذة في بعض معانيها من رف الطير: نشر جناحيه، ومن تكرار أصوات الكلمة، والله أعلم.

كما أن ذكر هذه الفريدة فيه تحقيق نوع من التناسب والانسجام بين عناصر النظم في نسق الآيات الكريمة، فقد وصف "الرفرف" بـ "الخضر"، وهو ما يتناسب مع وصف الجنتين بالخضرة الشديدة التي تضرب إلى السواد في قوله "مدهامتان".

فوصف تلك الفريدة بأنها خضر وصف كاشف لاستحضار اللون الأخضر لأنه يسر الناظرين، وكانت الثياب الخضر عزيزة – وهي لباس الملوك والكبراء– يقول النابغة[٢]:

يصُونُون أَجْسَادًا قَدِيمًا نَعِيمُها بِخَالِصَةِ الْأَرْدَانِ خُضْرِ المَنَاكِبِ

وكانت الثياب المصبوغة بالألوان الثابتة – التي لا يزيلها الغسل– نادرة لقلة الأصباغ الثابتة، ولا تكاد تعدو الأخضر والأحمر[٣].

ومن الملاءمة – أيضاً – بين "رفرف" و "خيام" أن الرفرف – كما يقول ابن منظور: "ثياب خضر يتخذ منها المجالس وتبسط"[٤].

وفي تكرار المقطع – الذي بني عليه تلك الفريدة – ما يوحي بتكرار النعيم والتقلب فيه والاستمتاع به، فأصحاب هاتين الجنتين متكؤهم على الرفرف الأخضر التي قد زادت على مجالسهم، فصار لها رفرفة من وراء مجالسهم؛ لزيادة البهاء وحسن المنظر.

---

(١) الكشاف: ٤/ ٤٥٢.

(٢) هذا البيت من قصيدته المشهورة التي يمدح بها عمرو بن الحارث. ديوان النابغة الذبياني: ٤٩، جمع وتحقيق وشرح الشيخ: محمد الطاهر ابن عاشور، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع – القاهرة، الطبعة الأولى ١٤٣٠هـ – ٢٠٠٩م، الأردان: جمع رُدُن – بضم الراء وسكون الدال– كم القميص، وخالصة: صفة لمحذوف، أي: بقمص خالصة الأردان، أي: صافية البياض، وخضر المناكب: صفة ثانية، واللام عوض عن المضاف إليه، أي: خالصة أردانها، خضر مناكبها، أي: موضع المناكب.

(٣) راجع: التحرير والتنوير: ٢٧/ ٢٧٥.

(٤) لسان العرب: ٩/ ١٢٦ (رفف).

وأما الفريدة الأخرى – وهي كلمة "عبقري" – فيقول ابن منظور عن أصلها: "إنها موضع بالبادية كثير الجن. يقال في المثل: كأنهم جن عبقر"[١].

فـ"عبقري" منسوب إلى عبقر، تزعم العرب أنه اسم بلد الجن فينسبون إليه كل عجيب من الفرش وغيرها، فمعناه: الشيء العجيب النادر، ومنه ما جاء في عمر – رضي الله عنه– "فلم أر عبقريا يفري فريه"[٢]، ولتناسي تلك النسبة قيل إنه ليس بمنسوب، بل هو مثل: كرسي وبختي، والمراد الجنس؛ ولذلك وصف بالجمع – وهو قوله تعالى: "حسان"– حملاً على المعنى[٣].

فالعرب قد نسبوا إلى بلاد الجن – في معتقدهم – كل ما تجاوز العادة في الإتقان والحسن، حتى كأنه ليس من الأصناف المعروفة في أرض البشر، فشاع ذلك فصار "العبقري" وصفاً للفائق في صنفه.

وقد أشار المعري إلى هذا بقوله[٤]:

وقَدْ كَانَ أَرْبابُ الفَصَاحَةِ كُلَّمَا رَأَوا حُسْنًا عَدُّوهُ مِنْ صَنْعَةِ الجِنِّ

فضربه القرآن مثلا لما هو مألوف عند العرب في إطلاقه[٥].

على أن تلك الكلمة قد وصفت بـ "الحسان"، كما وصفت الحور العين بـ "الحسان" في قوله: ﴿فِيهِنَّ خَيْرَاتٌ حِسَانٌ﴾ {الرحمن:٧٠}، ولا يخفى ما في هذا من التناسب والتناغم بين عناصر النظم الكريم.

ثم إن كلمة "عبقري" نوع من البسط تتناغم – أيضاً – مع ذكر الخيام قبل ذلك في قوله تعالى: ﴿حُورٌ مَّقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ﴾ {الرحمن:٧٢}.

وفي إيثار هذه الفريدة – أيضاً – إيحاء بتفرد هذه البسط بالجمال، ومغايرتها لما هو مألوف في دنيا البشر، وأنها بلغت في الحسن ودقة الصنعة مبلغاً لا يخطر على القلوب ولا يدرك في العقول.

****

(١) السابق نفسه: ٤/ ٥٣٤ (عبقر).

(٢) صحيح البخاري، كتاب المناقب، باب: علامات النبوة في الإسلام حديث رقم: ٣٦٣٣، ٤/ ٢٠٥، تحقيق: محمد زهير بن ناصر الناصر، دار طوق النجاة، الطبعة الأولى ١٤٢٢هـ.

(٣) راجع: روح المعاني: ١٤/ ١٢٣.

(٤) هذا البيت من قصيدة لأبي العلاء المعري يرثي بها أباه – شروح سقط الزند: ٩١٧.

(٥) راجع: التحرير والتنوير: ٢٧/ ٢٧٥.

الفريدة الثالثة: "موضونة"، وقد وردت في قوله تعالى: ﴿ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ ﴾{الواقعة:١٥}.

فهذه صورة أخرى من صور النعيم الذي أعده الله للسابقين في الجنة، فمجالسهم على سرر منسوجة بالذهب، مشبكة بالدر والياقوت؛ لأنهم سبقوا إلى ما دعاهم الله إليه، وشقوا الغبار في طلب مرضاة الله – عز وجل.

والموضونة – كما يقول السمين الحلبي – هي "المنسوجة المحكمة النسج، وهو مستعار من قولهم: وضن الدرع، أي: أحكم نسجها، والوضين: حزام الرحل.. وقال الأزهري: موضونة، أي: مرمولة، بمعنى منسوجة نسج الدرع، وقال مجاهد: منسوجة بالذهب، وكل شيء وضعت بعضه فوق بعض فهو موضون، ومنه قيل للدروع: موضونة، أي: تداخل حلق بعضها في بعض"[1].

وجاء كلام المفسرين قريباً من كلام اللغويين في المراد من هذه الفريدة. يقول ابن الجوزي: "وأما الموضونة فهي المنسوجة، كأن بعضها أدخل في بعض، ومنه قيل للدرع: موضونة.. وللمفسرين في معنى "موضونة" قولان: أحدهما: مرمولة بالذهب أو مشبكة بالدر والياقوت، وبه قال الأكثرون. والثاني: مصفوفة"[2].

والمتأمل في هذه الفريدة يجد أنها تصور شدة الإحكام، ووثاقة الخلق، ومتانة النسج، فإنها تعني أن هذه السرر قد أدخل بعضها في بعض كما يوضن حلق الدرع بعضها فوق بعض مضاعفة، وإنما توضن سطوحها – وهي ما بين سوقها الأربع حيث تلقى عليها الطنافس أو الزرابي– "للجلوس والاضطجاع ليكون ذلك المفرش وثيرا، فلا يؤلم المضطجع ولا الجالس"[3].

وهذه الفريدة فيها دلالة – أيضاً – على مدى تناسق تلك السرر وتناغم مواقعها، بعضها إلى جانب بعض، كأنما قد دوخل بعضها في بعض، كما توضن حلق الدرع، ومن ذلك قول الأعشى[4]:

وَمِنْ نَسْجِ دَاود مَوْضُونَةً تَسِيرُ مَعَ الْحَيِّ عِيرًا فَعِيرا

---

(١) عمدة الحفاظ: ٤/ ٣٢٠.

(٢) زاد المسير: ٤/ ٢٢٠.

(٣) التحرير والتنوير: ٢٧/ ٢٩٣.

(٤) هذا البيت من قصيدة يمدح بها هوذة بن علي الحنفي. راجع ديوان الأعشى: ٩٩، والشاعر – هنا– وصف الدروع، وجعلها من نسج سيدنا داود مبالغة في حسن صنعتها؛ لأنه نسجها بأمر من الله وتعليمه إياه، فهي محكمة النسج لتساق.

ثم إن هذه الفريدة فيها إيحاء بنفاسة معدنها ومكنون جوهرها، فهذه السرر مشبكة بالذهب والجوهر. يقول الزمخشري: "موضونة أي: مرمولة بالذهب، مشبكة بالدر والياقوت"[1].

وتناسق هذه السرر وتناغم بعضها إلى جانب بعض ينسجم مع ما بني عليه النظم الكريم من حسن التنسيق وجمال التقسيم في قوله: ﴿ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ .. الآيات ﴾ {الواقعة:١٠-٢٦}، وقوله: ﴿ وَأَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ فِى سِدْرٍ مَّخْضُودٍ.. الآيات ﴾ {الواقعة: ٢٧-٤٠}.

ولا يخفى أن هذه الكلمة تتناسب مع الجمع في قوله "سرر"؛ لأن هذه الفريدة فيها معنى الإحكام والتلاقي والتداخل، كما أن الجمع في "سرر" يدل على تلاقيها واجتماعها في مكان واحد، ويتواءم – أيضاً – مع ما بعدها في قوله تعالى: ﴿ مُّتَّكِـِٔينَ عَلَيْهَا مُتَقَٰبِلِينَ ﴾ {الواقعة:١٦}.

فكلمة متقابلين تشي بالتلاقي والتداخل، حيث "لا ينظر بعضهم من أقفاء بعض، وهو وصف لهم بحسن العشرة وتهذيب الأخلاق والآداب"[2].

على أن هذه الفريدة فيها دلالة – أيضاً – على شدة قرب السابقين بعضهم من بعض، سواء أكان هذا القرب قرباً حسياً أم قرباً معنوياً. يقول صاحب اللسان: "وقال رجل من العرب لامرأته: ضنيه – يعني متاع البيت– أي: قاربي بعضه من بعض"[3].

****

الفريدة الرابعة والخامسة: "نمارق" و "زرابي"، وقد وردتا في قوله تعالى: ﴿ فِى جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿١٠﴾ لَّا تَسْمَعُ فِيهَا لَٰغِيَةً ﴿١١﴾ فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ ﴿١٢﴾ فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ ﴿١٣﴾ وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ ﴿١٤﴾ وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ ﴿١٥﴾ وَزَرَابِىُّ مَبْثُوثَةٌ ﴾ {الغاشية:١٠- ١٦}.

وهذا مظهر آخر من مظاهر التشريف والتكريم لعباد الله المؤمنين، حيث وعدهم بجنة عالية المكان، مرتفعة على غيرها من الأمكنة، فيها وسائد مصفوفة بعضها إلى جوانب بعض، فإن شاءوا جلسوا عليها وإن أرادوا استندوا إليها.

كما أن في تلك الجنة – أيضاً – بسطا مبسوطة في المجالس، بحيث يرى في كل مجلس منها شيء، كما يرى في بيوت المترفين وذوي الثراء.

---

(١) الكشاف: ٤/ ٤٥٩.

(٢) تفسير أبي السعود: ٨/ ١٩١.

(٣) لسان العرب: ١٣/ ٤٥٠ (وضن).

والنُّمرُق والنُّمْرُقة والنِّمْرِقَةُ: الوسادة، وقيل: وسادة صغيرة، وربما سموا الطِّنْفِسَة التي فوق الرحْل نمرقة، والجمع نمارق، وقيل: النمرقة هي التي يُلْبَسُها الرحْل[1].

واختيار لفظ "النمارق" فيه إشارة إلى التباين الشديد بين حالي أهل النار وأهل الجنة، فالأولون في تعب وإرهاق ونصب وذل، وأما الآخرون فينعمون بجميع مظاهر الراحة والدعة والطمأنينة؛ لأن النمارق مظهر من مظاهر الراحة والطمأنينة.

وهذه الفريدة تعني الوسائد التي يتكؤ عليها، والاتكاء جلسة بين القاعد والمضطجع، ففي النمارق معنى العلو والارتفاع – بتأتي الاتكاء عليها – وهي بهذا المعنى تناسب وصف الجنة بالعلو والارتفاع في قوله تعالى: ﴿فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ﴾ {الغاشية:١٠} والسرر بالارتفاع – أيضاً – في قوله تعالى: ﴿فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ﴾ {الغاشية:١٣}

ووصف تلك النمارق بأنها "مصفوفة" مظهر من مظاهر الجمال البديع الذي يدخل الأنس والسرور على النفوس، فأينما أراد أن يجلس جلس على موسدة واستند إلى أخرى، ولا يخفى أن هذا من تمام النعيم وكماله – أيضاً.

على أن هذا القيد فيه إشارة إلى كثرة تلك النمارق ووفرتها. يقول البقاعي: "و(مصفوفة) أي: بعضها إلى بعض، فهي في غاية الكثرة، كأنها الروابي المنضدة على بساط الأرض"[2].

وأما الزرابي فهي جمع زربية، وهو نوع من الثياب محبر منسوب إلى موضع، وزرابي البيت: ألوانه، وقد أزرب البيت: صار ذا زرابي، وهي البسط، فلما رأوا الألوان في البسط شبهوه به، وقيل: هي البسط العراض[3].

والزرابي فيها إشارة إلى تمام مظاهر الترف والنعيم الذي يظهر في البسط المنسوجة من الصوف الملون الناعم الذي يفرش في الأرض؛ للزينة والجلوس عليه لأهل الترف واليسار.

ويأتي القيد في قوله "مبثوثة" ليؤكد على أن تلك الزرابي "مبسوطة على وجه التفرق في المواضع التي لا يراد التنزه بها من مواضع الرياحين النابتة والأشجار المتشابكة، كما بسط سبحانه وتعالى أديم الأرض ورصعه بأنواع النباتات الفاخرة، بما بسطوا أنفسهم في الدنيا للحق وألانوها له"[1].

---

(١) السابق نفسه: ١٠/ ٣٦١ (نمق).

(٢) نظم الدرر: ٣٢/ ١٢.

(٣) عمدة الحفاظ: ٢/ ١٣٨.

وهذا وعد المؤمنين بأن لهم في الجنة ما يعرفون من النعيم في الدنيا، وقد علموا أن ترف الجنة لا يبلغه الوصف بالكلام، وجمع هذا بوجه الإجمال في قوله تعالى: ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ﴾ {الزخرف:٧١}.

ثم إن الأرواح ترتاح بمألوفاتها فتعطاها، فيكون نعيم أرواح الناس في كل عصر ومن كل مصر في الدرجة القصوى مما ألفوه، ولا سيما ما هو مألوف لجميع أهل الحضارة والترف، وكانوا يتمنونه في الدنيا، ثم يزادون من النعيم ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر[٢].

ولا يخفى أن هذا التصوير لترف أهل الجنة وما يكتنفهم من نعيم ولذة إنما هو لتقريبه من عقولهم حتى يستطيعوا إدراكه وفهمه، وإلا فإن نعيم الجنة مما يسمو على الفكر، ويعلو فوق متناول الإدراك.

فالأشياء التي عددها سبحانه تتشابه مع نظائرها التي في هذه الحياة بأسمائها، وأما حقائقها وذواتها فليست مثلها ولا قريبا منها، كما أثر عن ابن عباس أنه قال: "ليس في الدنيا مما في الآخرة إلا الأسماء"[٣].

****

(١) نظم الدرر: ٢٢/ ١٢.

(٢) راجع: التحرير والتنوير: ٣٠/ ٣٠٣.

(٣) تفسير القرآن العظيم لأبي الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي: ٧/ ٥٠٢، تحقيق: سامي بن محمد سلامة، دار طيبة للنشر والتوزيع، الطبعة الثانية ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩ م.

المحور الثالث: من أسرار الفرائد القرآنية في وصف أشجار الجنة

وقد ورد في هذا السياق أربع فرائد، وهذه الفرائد على ترتيب دراستها هي: (أفنان- مدهامتان- مخضود- منضود).

الفريدة الأولى: "أفنان" وجاءت في قوله تعالى: ﴿ ذَوَاتَآ أَفۡنَانٖ ﴾ {الرحمن:٤٨}.

وردت هذه الفريدة في سياق الحديث عمن راقب الله في السر والعلانية بعمله، مما عرض له من محرم تركه من خشية الله، وما عمل به من خير أفضى به إلى الله – لا يجب أن يطلع عليه أحد- فله جنتان.

والفن – كما يقول ابن منظور: "واحد الفنون، وهي الأنواع، والجمع أفنان وفنون. يقال: رعينا فنون النبات، وأصبنا فنون الأموال"[١].

وأما المفسرون فلم تتفق كلمتهم على المراد من كلمة "أفنان" في هذا المقام. يقول الألوسي: "والأفنان إما جمع فن – بمعنى النوع- ولذا استعمل في العرف بمعنى العلم، أي: ذواتا أنواع من الأشجار والثمار.. وإما جمع فنن، وهو ما دق ولان من الأغصان.. وقد يفسر بالغصن، وحمل على التسامح"[٢].

فالأفنان: الغصنة التي تتشعب من فروع الشجرة، وإنما خصها بالذكر – مع أنها ذواتا قصب وأوراق وثمار –أيضاً؛ لأنها هي التي تورق وتثمر، فمنها تمتد الظلال ومنها تجنى الثمار، ففي الوصف تذكير لهما، فكأنه قيل: ذواتا ثمار وظلال لكنه اكتفى بتلك الفريدة عن ذلك[٣].

فهذه الفريدة فيها نوع من الإيجاز؛ لأنها تجمع – في الدلالة- بين الثمار والظلال بخلاف الأغصان، فكأن النظم الكريم مدح هاتين الجنتين بظلالهما وتكاتف أغصانهما، ومدحهما – أيضاً- بكثرة أنواع فواكههما ونعيمهما.

على أن هذه الفريدة تجمع في دلالتها بين الجمال والجلال؛ إذ الفنن – كما يقول الراغب: "الغصن الغض الورق"[٤]؛ وكأن "الأفنان" لا تكون إلا في الأشجار ذوات الثمار والظلال، وهذا ما يتطابق مع مقتضى حال الجنة وحال النعيم فيها.

---

(١) لسان العرب: ١٣/ ٣٢٦ (فنن).

(٢) روح المعاني: ١٤/ ١١٦.

(٣) راجع: الكشاف: ٤/ ٤٥٢، وروح المعاني: ١٤/ ١١٦.

(٤) المفردات للراغب: ٦٤٥ (فنن).

ولا يخفى أن في إيثار تلك الفريدة – دون غيرها – دلالة عل تعدد ألوان نعيم الجنة وتنوعه، وهذا مأخوذ من عموم الدلالة في تلك الكلمة، ففي الجنة ما تشتهي الأنفس وتلذ الأعين.

فهذه الفريدة تشير إلى ما في الجنة من أعاجيب النعيم، وغرائب المنح والعطايا التي أعدها الله لعباده المؤمنين الذين يخافون مقامه، ويجتنبون معاصيه.

كما أن التعبير بتلك الفريدة يشي بشيء آخر، وهو تولد نعيم الجنة بعضه عن بعض، فالنعيم يخرج من نعيم آخر وهكذا. يقول صاحب اللسان: "والرجل يفنن الكلام، أي: يشتق في فن بعد فن"[1].

وإنما آثر جمع القلة في هذه الفريدة لمراعاة الفواصل السابقة واللاحقة، فقد بنيت قرائن السورة عليها، والقرينة ظاهرة لا تحتاج إلى فضل كلام.

****

الفريدة الثانية: "مدهامتان"، وقد جاءت في قوله تعالى: ﴿ وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ﴿٦٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٣﴾ مُدْهَامَّتَانِ ﴾ {الرحمن:٦٢-٦٤}.

وردت هذه الفريدة عقب الحديث عن الجنتين اللتين ذكر أنهما لمن خاف مقام ربه، فمن دون تينك الجنتين –الموعودتين للمقربين– جنتان لمن دونهم من أصحاب اليمين، قد ادهامتا من شدة الخضرة.

وقد ذكر اللغويون أن المراد من قوله "مدهامتان" أنهما "خضروان شديدتا الري، قد غلب عليهما لون السواد. والعرب تقول للشجر: السواد؛ لخضرتها، وكل نبت أخضر فتمام خصبه وريه أن يضرب إلى السواد.. ومنه سواد العراق؛ لاخضرار أشجاره"[2].

وسار المفسرون على نهج اللغويين واقتفوا أثرهم في بيان المراد من هذه الفريدة وتوضيح معناها، حيث يقول الشيخ صديق خان: "وهاتان الجنتان – من خضرتهما– قد اسودتا من الري، وكل ما علاه السواد ريا فهو مدهم عند العرب، قال مجاهد: مسودتان، والدهمة في اللغة: السواد يقال: فرس أدهم، وبعير أدهم: إذا اشتدت ورقته حتى ذهب البياض الذي فيه، وناقة دهماء، وادهام ادهيماما، أي: اسواد"[3].

وفي هذه الفريدة دلالات جمة وإشارات مهمة منها:

---

(١) لسان العرب: ١٣/ ٣٢٦ (فنن).

(٢) راجع: لسان العرب: ١٢/ ٢٠٩ (دهم)، وعمدة الحفاظ: ٢/ ٢٨.

(٣) فتح البيان: ١٣/ ٣٤٦، وراجع، تفسير الطبري: ٢٣/ ٦٩، والمحرر الوجيز: ٥/ ٢٣٥، والدر المنثور: ٧/ ٧١٥، وروح المعاني: ١٤/ ١٢٠.

أنها أبلغ في الدلالة على شدة الخضرة؛ لأنه "يعبر بالدهمة عن الخضرة الكاملة اللون؛ يقال: ادهام الليل يدهام ادهيماما. فافعالَّ أبلغ من افعلَّ، وذلك أن احمارَّ أبلغ من احمرَّ، وكأن زيادة الحرف زيادة في المعنى"[1].

وهذه الكلمة أشد إيجازا في الدلالة على شدة الخضرة مما لو قيل: مسوادتان من الخضرة الشديدة، فاللفظ نفسه مصور بجرسه للون الأسود – الغالب على هاتين الجنتين– من شدة الخضرة.

كما أن هذه الفريدة فيها مراعاة لتناغم الفواصل، وتحقيق لتناغم الجرس والإيقاع في فواصل الآي الكريمة.

على أن هذه الفريدة تشعر – أيضاً – بأن الغالب على هاتين الجنتين النبات والرياحين المنبسطة على وجه الأرض، كما أن في وصف السابقتين بـ "ذواتا أفنان" إشعاراً بأن الغالب عليهما الأشجار؛ فإن الأشجار توصف بأنها ذوات أفنان، والنبات يوصف بالخضرة الشديدة، فالاقتصار في كل منهما على أحد الأمرين مشعر بما ذكر[2]، وهذا يتناغم مع مظاهر النعيم وعظيم الجزاء الذي أعده الله لأهل الجنة.

****

الفريدة الثالثة والرابعة: "مخضود" و "منضود"، وقد وردتا في قوله تعالى: ﴿ فِي سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ﴿٢٨﴾ وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ ﴾ {الواقعة:٢٨،٢٩}.

بعد أن ذكر النظم الكريم حال السابقين وبين ما لهم من نعيم مقيم في جنات النعيم؛ أردف ذلك ذكر أصحاب اليمين، فبين أنهم في جنات يتخللها السدر المخضود، والموز المنضد بعضه فوق بعض..

ويقول اللغويون إن (المخضود) هو الذي "خضد من شوكه أو عُرِّي. يقال: خضدت الغصن من ورقه وشوكه: إذا نحيتها عنه، وقيل: خضد شوكه، أي: كسر، ومنه استعير: خضد عنق البعير، أي: كسر"[3].

---

(١) عمدة الحفاظ: ٢/ ٢٨.

(٢) راجع: تفسير أبي السعود: ٨/ ١٨٦، وروح المعاني: ١٤/ ١٢٠.

(٣) راجع: أساس البلاغة للزمخشري: ١/ ٢٥١، تحقيق: محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة الأولى ١٤١٩هـ – ١٩٩٨م، ولسان العرب: ٣/ ١٦٢ (خضد)، وعمدة الحفاظ: ١/ ٥٠٨.

وقد ذكر المفسرون أن أصحاب اليمين في "سدر غير ذي شوك – لا كسدر الدنيا– وهو شجر النبق، كأنه خضد شوكه – أي: قطع– وقيل مخضود، أي: مثنىٰ أغصانه لكثرة حمله، من خضد الغصن: إذا ثناه وهو رطب"[١].

والسدر من شجر البادية، أحبه العرب وولعوا به، لكنه لم يكن في جناتهم وحوائطهم – لأنه لا يعيش إلا في البادية، فلا ينبت في جناتهم– ولذا خص بالذكر من بين شجر الجنة؛ إغرابا به وبمحاسنه التي كان محروماً منها من لا يسكن البوادي، وبوفرة ظله، وتهدل أغصانه، ونكهة ثمره.

وإنما وصف بـ "المخضود" – وهو المزال شوكه – لتكمل محاسنه ويزداد الاشتياق إليه، بانتفاء ما فيه من أذىٰ، فالقرآن الكريم يختار الكلمة الدقيقة المعبرة؛ ولذا فإنه يفضل الكلمة المصورة للمعنىٰ أكمل تصوير؛ ليشعرك به أتم شعور وأقواه.

فالسدر المخضود ثمره طيب، وظله ظليل، وفيه راحة للجسم لا توصف.

وهذه الفريدة تشير إلىٰ كثرة الثمر، ووفرة الخير الذي يحمله سدر الجنة، وتفرده عن سدر الدنيا، يقول السمين الحلبي: "والمخضود هو الذي امتلأت أغصانه ثمرا موضع الورق"[٢].

ويؤيد هذا المعنىٰ ما ورد من "أن أعرابياً أقبل يوما علىٰ النبي – صلىٰ الله عليه وسلم– فقال: يا رسول الله! لقد ذكر الله في القرآن شجرة مؤذية، وما كنت أرىٰ في الجنة شجرة تؤذي صاحبها؟ قال رسول الله – صلىٰ الله عليه وسلم– وما هي؟ قال: السدر فإن له شوكا مؤذيا، فقال– صلىٰ الله عليه وسلم– أو ليس يقول: (في سدر مخضود)، خضد الله شوكه فجعل مكان كل شوكة ثمرة، فإنها تنبت ثمراً يفتق الثمر منها عن اثنين وسبعين لوناً من الطعام، ما فيه لون يشبه الآخر"[٣].

وفي التعبير بهذه الفريدة ما يشي بأن هذه الخضد "بإزاء أعمالهم التي سلموا منها؛ إذ أهل اليمين توابون، لهم سلام وليسوا بسابقين"[٤].

---

(١) تفسير أبي السعود: ٨/ ١٩٢، وراجع: تفسير الطبري: ٢٣/ ١١٠، وفتح البيان: ١٣/ ٣٦٥.

(٢) عمدة الحفاظ: ١/ ٥٠٨.

(٣) تفسير القرطبي: ١٧/ ٢٠٧.

(٤) المحرر الوجيز: ٥/ ٢٤٣ وما بعدها.

على أن كلمة "مخضود" تدل على معنى قطع الشوك منه، يقال: خضدته فانخضد، فهو مخضود وخضيد – بمعنى مقطوع الشوك[١]– وفيه يفترق (مخضود) عن (مقطوع) بأن الخضد يكون للشوك، أو لما هو لين منه[٢]، وأما القطع ففيه معنى الإبانة والبتر والبت.

وبهذا الملحظ في الفرق بين الخضد والقطع – أو الكسر – تحتفظ الكلمة القرآنية بخاص دلالتها على التشذيب والتجريد من الشوك، دون حاجة إلى التصريح بلفظه، على حين لو قلنا: سدر مكسور أو مقطوع لاقتضى أن نقيدهما بالشوك صراحة، وهو قول الطبري[٣] والزمخشري[٤] والقرطبي[٥] وأبي حيان[٦] في تفسير الآية، وقول الراغب في الآية: أي مكسور الشوك[٧]، وقول ابن الأثير: أي الذي قطع شوكه[٨].

وإنما صدرت الآية بحرف الجر "في" – الذي يفيد الظرفية– للمبالغة في التنعم والانتفاع به، فأصحاب اليمين شأنهم عظيم، وحالهم جسيم.

ولعل فيه إيحاء بولع أهل الجنة بأكله، وأنهم لاينفكون عن ذلك؛ لحلاوة ثمره، وطيب مطعمه.

وأما الفريدة الأخرى فهي قوله "طلح"، وقد ذكر اللغويون أن "الطلح" هو شجر الموز، وقيل هو شجر عظيم بالبادية كالسمر ونحوه، إلا أنه تعالى وصفه بخلاف صفته الدنيوية، فذكر أنه نضد بالثمرة من أوله إلى آخره، فليست له سوق بارزة[٩].

وقد ذكر أكثر المفسرين أن الطلح في الآية هو شجر الموز، وقال جماعة: ليس هو شجر الموز ولكنه الطلح المعروف، وهو أعظم أشجار العرب، وقيل: هو شجر عظام لها شوك[١].

---

(١) المفردات: ٢٨٥.

(٢) المحرر الوجيز: ٥/ ٢٤٣ وما بعدها.

(٣) المفردات: ٢٨٥.

(٤) لسان العرب: ٣/ ١٦٣ (خضر).

(٥) تفسير الطبري: ٣٣/ ١١٠.

(٦) الكشاف: ٤/ ٤٦١.

(٧) المفردات: ٢٨٥.

(٨) راجع: الإعجاز البياني للقرآن ومسائل ابن الأزرق للدكتورة/ عائشة عبد الرحمن: ٤٥٦، دار المعارف – القاهرة، الطبعة الثالثة، (د.ت).

(٩) راجع: المفردات: ٥٢٢، ولسان العرب: ٢/ ٥٣٣ (طلح)، وعمدة الحفاظ: ٢/ ٤١٠.

ومجيء هذه الفريدة في هذا المقام – دون غيرها – لأن "الطلح" من أعظم أشجار العرب، له نور وريح طيبة، فقد وعدهم ما يعرفون ويميلون إليه، وإن لم يقع التساوي بينه وبين ما في الدنيا. يقول القرطبي: "فخوطبوا ووعدوا بما يحبون مثله، إلا أن فضله على ما في الدنيا كفضل سائر ما في الجنة على ما في الدنيا"[٢].

فالصورة هذه حسية مألوفة لدى الإنسان في الدنيا، وقد ذكرت – هنا– في نعيم الآخرة لتقريب الصورة من الأذهان، ولو أن الله خاطب الإنسان بصور لا يعرفها ما كان للجنة هذا التأثير في النفوس، ولكن ثمار الجنة لا تشبه الثمار في الدنيا إلا من حيث الشكل والاسم، وأما طعومها فمختلفة، كما هو مقرر.

فتشابه الثمار في المظهر – مع اختلاف طعومها – يحقق المفاجأة العزيزة لأهل الجنة من حيث لا يتوقعون، مع شيء من المداعبة لأهل النعيم، تزيدهم سرورا وشعورا بلذة النعيم، بالإضافة إلى إبراز مظاهر قدرة الله – سبحانه– في وضع الفروق بين المتشابه، وتعدد الألوان، والمظهر متقارب.

على أن ذكر هذه الفريدة – هنا– فيه ملمح آخر، وهو أنه لما كان الطلح شجرا حسن اللون، له رفيف ونور طيب، خوطبوا ووعدوا بما يحبون؛ وذلك لكثرة ظله، وهم يحبون الظل؛ ولذلك وعدوا به في مواضع[٣].

****

(١) راجع: تفسير الطبري: ٢٣/ ١١١ وما بعدها، والكشاف: ٤/ ٤٦١، وتفسير القرطبي: ١٧/ ٢٠٨، وفتح البيان: ١٣/ ٣٦٥.

(٢) تفسير القرطبي: ١٧/ ٢٠٨.

(٣) راجع: عمدة الحفاظ: ٢/ ٤١١.

المحور الرابع: من أسرار الفرائد القرآنية في وصف ماء الجنة

ورد في هذا السياق فريدتان اثنتان وهما: (نضاختان- مسكوب).

وقد وردت الفريدة الأولى في قوله تعالى: ﴿ فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ ﴾ {الرحمن:٦٦}.

بعد أن ذكر النظم الكريم الجنتين اللتين قد ادهامتا من شدة الخضرة؛ ذكر أن في الجنتين المذكورتين عينين فوارتين تنضخ على أولياء الله بالمسك والعنبر والكافور- في دور أهل الجنة- كما ينضخ رش المطر.

ومن العلماء من ذهب إلى أن العينين النضاختين خير من العينين اللتين تجريان، وحجتهم في ذلك أن الفوران جري مع زيادة حسن، "فالماء إذا فار وارتفع وقع متناثر القطرات كحبات اللؤلؤ المتناثرة، كما يشاهد في الفوارات المعروفة"[1].

وأما عن أصل هذه الفريدة فيقول ابن منظور: "النضخ: شدة فور الماء في جيشانه وانفجاره من ينبوعه، قال أبو علي: ما كان من سفل إلى علو فهو نضخ، وعين نضاخة: تجيش بالماء، وفي التنزيل: (فيهما عينان نضاختان)، أي: فوارتان"[2].

وذكر المفسرون أن العينين النضاختين هما الفوارتان بالماء، وأن النضخ – بالخاء- أكثر من النضح – بالحاء- وعن ابن عباس أن المعنى: نضاختان بالخير والبركة[3].

وإيثار التعبير بتلك الفريدة لعلل كثيرة منها:

أن هذه اللفظة أبلغ في تصوير كثرة الماء من "النضح" بسبب قوة حروفها؛ فالخاء أقوى من الحاء صفة ونطقا؛ فهو حرف رخو مستعل منفتح، وهذا ينعكس على المعنى الذي تصوره تلك الفريدة، فهاتان العينان تفوران بالماء، وتفيضان بالخير والبركة على أهل الجنة.

كما أن مجيء تلك الفريدة على وزن المبالغة فيه دليل آخر على الكثرة والثبوت والدوام، وفي هذا ما يشي بكثرة الماء ووفرته الذي يستلزم شدة الخضرة.

فهذه الفريدة هي التي تنسجم مع ما قبلها – في نسق الآيات- من وصف الجنتين بالدهمة؛ فإن الماء عند اندفاعه من العين إلى أعلى – بقوة وكثرة- يضرب إلى السواد، وهذا يتسق مع وصف الجنتين بأنهما مدهامتان.

---

(١) روح المعاني: ١٤/ ١٢١.

(٢) لسان العرب: ٣/ ٦١ (نضخ).

(٣) راجع: الكشاف: ٤/ ٤٥٣، وتفسير القرطبي: ١٧/ ١٨٥، والدر المنثور: ٧/ ٧١٦.

فالمتأمل في سياق هذه الآية يجد أن هذه اللفظة جاءت مؤتلفة – دون غيرها– مع بقية ألفاظ الآيات، فهي من أوضح ما يكون على مراعاة الذكر الحكيم للتناسب الشديد بين الألفاظ، وهو ما يسميه الزركشي في البرهان: "مشاكلة اللفظ للمعنى"[1]، أو كما يسميه السيوطي في الإتقان: "ائتلاف اللفظ مع المعنى" حيث يقول: "ائتلاف اللفظ مع اللفظ وائتلافه مع المعنى. الأول: أن تكون الألفاظ يلائم بعضها بعضا بأن يقرن الغريب بمثله والمتداول بمثله رعاية لحسن الجوار والمناسبة، والثاني: أن تكون ألفاظ الكلمة ملائمة للمعنى المراد، فإن كان فخما كانت ألفاظه فخمة، أو جزلا فجزلة، أو غريباً فغريبة، أو متداولا فمتداولة، أو متوسطاً بين الغرابة والاستعمال فكذلك"[2].

على أن هذه الفريدة مصورة – بجرس حروفها القوي– لقوة الماء وشدة اندفاعه من العين إلى أعلى.

ونرى ابن جني يستنطق الطبيعة ليفسر الفرق بين دلالتي "النضح" و "النضخ" فيذكر الآية الكريمة مؤكداً دلالة "الخاء" وأثرها في تصوير العنف والكثرة، يقول: "النضح للماء ونحوه، والنضخ أقوى من النضح، فجعلوا (الحاء) لرقتها للماء الضعيف، و (الخاء) لغلظها لما هو أقوى."[3]

وهذه الأصوات لم تكن في معتقد ابن جني مصورة تمام التصوير للمعنى، بل هي تقوم بعامل الملاءمة، وتساعد على التصوير، وذلك يبدو لنا جليا من اختياره لتعريف الباب بـ"المصاقبة"– أي: المقاربة أو المجاورة– وكذلك يعرف الباب الثاني بـ "الإمساس"، ولا يقول بالمطابقة الكلية، وتلك نظرة دقيقة محقة ومقنعة، وقد اتضح هذا المنحى في تأملات المعاصرين الذين عرضوا للإعجاز؛ إذ لم يقولوا بالمحاكاة التامة دائماً.

وهناك ملمح دقيق وإشارة لطيفة في إيثار تلك اللفظة – دون غيرها– وهو أن تلك الفريدة تتناسب في دلالتها مع رقة نعيم الجنة وسلاسته؛ فإن النضخ – كما ذكر أبو علي في دلالته– يكون بالماء وبكل ما رقَّ[4].

****

(١) البرهان في علوم القرآن للزركشي: ٣/ ٣٧٨، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية، الطبعة الأولى ١٣٧٦هـ – ١٩٥٧م.

(٢) الإتقان في علوم القرآن للسيوطي: ٣/ ٢٩٩.

(٣) الخصائص لأبي الفتح عثمان بن جني: ٢/ ١٦٠، الهيئة المصرية العامة للكتاب، الطبعة الرابعة (د.ت).

(٤) لسان العرب: ٣/ ٦٢ (نضخ).

الفريدة الثانية: "مسكوب"، وقد وردت في قوله تعالى: ﴿ وَمَآءٖ مَّسۡكُوبٖ ﴾ {الواقعة:٣١}.

فأصحاب اليمين يتمتعون بجنات فيها ماء مصبوب، لا يحتاج أهلها إلى تعب ونصب للحصول عليه.

والماء المسكوب – كما يقول اللغويون – هو الماء المصبوب، يقال: سكبت الماء سكباً، فهو مسكوب، وانسكب انسكابا، وشبهت الفرس بالماء المسكوب؛ لشدة جريها، وثوب سكب – تشبيهاً بالمنصب– لدقته ورقته كأنه ماء مسكوب[١].

ويقول الشيخ صديق خان: "قوله (وماء مسكوب) أي: منصب، جار يجري بالليل والنهار أينما شاؤوا، لا ينقطع عنهم، فهو مسكوب، يسكبه الله في مجاريه، وأصل السكب: الصب، يقال: سكبه، أي: صبه، والمعنى: جار بلا حد ولا خد، أي: في غير أخدود"[٢].

وفي التعبير بهذه الفريدة إشارات بيانية عديدة، ولطائف بلاغية دقيقة.

فمن ذلك: أن هذه الكلمة تشير إلى سهولة تناول ذلك الماء، وأن أصحاب اليمين لا يتعنون في الحصول عليه، والعرب – كما هو معلوم– أصحاب بادية وبلاد حارة "وكانت الأنهار في بلادهم عزيزة لا يصلون إلى الماء إلا بالدلو والرِّشاء، فوعدوا في الجنة خلاف ذلك، ووصف لهم أسباب النزاهة المعروفة في الدنيا، وهي الأشجار وظلالها، والمياه والأنهار واطرادها"[٣].

وفيها إشارة إلى سهولة السكب وعدم إضراره؛ لأنه سكب في يسر وسهولة، بخلاف "الصب" ففيه إيحاء بالقوة والعنف – لما في "الصاد" من معاني القوة والاستعلاء– الذي لا يتناغم مع مظاهر الترف والنعيم الذي ينغمس فيه أصحاب اليمين ويتمتعون به.

كما أن هذه الفريدة فيها دلالة على غزارة الماء وكثرته وعدم انقطاعه "فهو ماء لا يقتصد في استعماله، كما يقتصد أهل الصحراء، بل هو ماء يستخدمونه استخدام من لا يخشى نفاده"[٤]، وهذا ما يؤكد على النعيم الدائم والترف المحمود الذي يرفل فيه أهل الجنة.

---

(١) راجع المفردات: ٤١٦، ولسان العرب: ١/ ٤٦٩، وعمدة الحفاظ: ٢/ ٢٠٦.

(٢) فتح البيان: ١٣/ ٣٦٧.

(٣) تفسير القرطبي: ١٧/ ٢٠٩.

(٤) من بلاغة القرآن لأحمد بدوي: ٥٦.

على أن هذه الكلمة تشي بجمال المنظر وبهاء الرونق؛ لأن هذا الماء يجري على الأرض في غير أخاديد "كأنه مثل حال السابقين بأقصى ما يتصور لأهل المدن، وقال أصحاب اليمين بأكمل ما يتصور لأهل البوادي؛ إيذانا بالتعاون بين الحالين"[1].

ثم إن هذه الفريدة فيها دلالة – أيضاً – على برودة الماء، وغاية رقته، وشدة عذوبته. يقول الراغب: "وثوب سكب، تشبيهاً بالمنصب لدقته ورقته؛ كأنه ماء مسكوب"[2].

ولا يخفى أن كل هذه الإشارات والدقائق تدور في تصوير غاية نعيم أهل الجنة وكمال عيشهم فيها.

****

(١) تفسير أبي السعود: ٨/ ١٩٣.

(٢) المفردات: ٤١٦.

المحور الخامس: من أسرار الفرائد القرآنية في وصف نساء الجنة

حوى ذلك السياق فريدتين اثنتين هما: (الياقوت - والخيام)، وجاءت الفريدة الأولى في

قوله تعالى: ﴿كَأَنَّهُنَّ ٱلْيَاقُوتُ وَٱلْمَرْجَانُ﴾ {الرحمن:٥٨}.

جاءت هذه الآية في سياق الحديث عن الحور العين، حيث يملأ الجنة أنسا هؤلاء الزوجات اللاتي جمعن بين جمال الجسم وجمال النفس، إضافة إلى العفة وقصر استمتاعهن على أزواجهن، وهذا أقصى ما يتطلبه الحر في المرأة.

يقول الفيروزآبادي عن أصل هذه الفريدة ودلالتها: "الياقوت: فارسي معرب، نطق به القرآن المجيد، والجمع: اليواقيت، وسكت عن ذكره أكثر أهل اللغة، وهو على ثلاثة أجناس: أصفر وأحمر وكحلي، فالأحمر أشرفها وأنفسها، وهو حجر إذا نفخ عليه النار ازداد حسنا وحمرة.. وأما خاصيته في تفريح النفس، وتقوية القلب، ومقاومة السموم فأمر عظيم"[(١)].

وقد ذكر ابن عطية أن الياقوت والمرجان "من الأشياء التي قد برع حسنها، واستشعرت النفوس جلالتها فوقع التشبيه بها، لا في جميع الأوصاف، لكن فيما يشبه ويحسن بهذه المشبهات"[(٢)].

وإنما خص "الياقوت" – هنا – لأنه الذي يتناسب مع ذكر "المرجان"؛ فالياقوت شديد الصفاء، والمرجان – صغار الدر– ناصع البياض[(٣)]، وهو ما يعكس جمال الحور العين، ويبرز عفافهن وشرفهن وفرحة أزواجهن وما يتصل بالقناعة والرضا وعدم التطاول.

فالبيان القرآني قد عبر بهاتين الكلمتين عن الجمال الشكلي وجمال المضمون الخلقي، ولا غرو فالنص القرآني أوحد ومعجز؛ إذ يشتمل على كلمات لا تكون نافرة أو قلقة في مكانها، ولا تكون حشوا يستغنى عنه؛ إذ لا يجوز هذا في النص الإلهي، ولا يجوز على الكرم الرباني الذي يوافق العقل والشعور أن يوجد مغمز إمكان الزيادة والنقصان أو التبديل.

كما أن ذكر تلك الفريدة – مع "المرجان" هنا – فيه دلالة على تنوع مظاهر الجمال وتعدده الكائن في الحور العين، فالياقوت يتسم بالحمرة الصافية ونعومة الملمس، وهذا ينعكس إيجاباً على جمال الحور العين،

---

(١) بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز للفيروزآبادي: ٥/ ٣٩١، تحقيق: محمد علي النجار، الناشر: لجنة إحياء التراث بالمجلس الأعلى للشئون الإسلامية – القاهرة، ١٤١٢هـ – ١٩٩٢م.

(٢) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز لابن عطية الأندلسي: ٥/ ٢٣٤، تحقيق: عبد السلام عبد الشافي محمد، دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة الأولى ١٤٢٣هـ.

(٣) راجع: الكشاف: ٤/ ٤٥٢، وفتح البيان: ١٣/ ٣٤٣.

وما أعده الله لعباده المؤمنين في جنات الخلد: من معالم كثيرة ورغائب وفيرة، من نساء وطعام وشراب وخضرة، وإفساح المجال – أيضاً– للخيال، وتصور ما قد يخطر على النفس وتستريح إليه العين.

على أنه ليس في "الياقوت" و "المرجان" لون فحسب، وإنما هو لون صاف فيه نقاء وهدوء، وهي أحجار كريمة تصان ويحرص عليها، وللنساء نصيبهن من الصيانة والحرص، وهن يتخذن من تلك الأحجار زينتهن، فقربت بذلك الصلة واشتد الارتباط، وهكذا لا تجد الحس وحده هو الرابط والجامع، ولكن للنفس نصيب أي نصيب[1].

ولما كان المقام – هنا – مقام امتنان وتفضل؛ جمع "الياقوت" مع "المرجان،" لما في ذلك من تفصيل وإطناب، يتطابق مع هذه المقامات.

وهاتان الكلمتان تتناسبان مع صفات العفة والنزاهة والستر والصون المدلول عليها بقوله: ﴿فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرۡفِ لَمۡ يَطۡمِثۡهُنَّ إِنسٞ قَبۡلَهُمۡ وَلَا جَآنّٞ﴾ {الرحمن: ٥٦}، فإن الياقوت والمرجان مصونان عن الأيدي، مستوران عن الأعين في قاع البحر.

وكما نلمح في تشبيههن بالياقوت والمرجان "معنى النفاسة والزكاوة؛ لأن من يملك شيئاً من هذين النوعين فهو عليه حريص وبه معتز"[2].

ولا يخفى أن الحور العين قد بلغن الكمال في الستر والحفظ والصون والجمال؛ بدلالة مجيء هاتين الكلمتين معرفتين بالألف واللام، وقد قيل: "إن الحوراء تلبس سبعين حلة فيرى مخ ساقها من ورائها، كما يرى الشراب الأحمر في الزجاجة البيضاء"[3].

وتقديم "الياقوت" على "المرجان" لما فيه من شدة الجذب ولفت الانتباه، فاللون الأحمر الصافي يسحر العيون ويأخذ بالألباب قبل اللون الأبيض الخالص، ولنفاسة الياقوت عن المرجان – أيضاً.

****

(١) راجع: من بلاغة القرآن لأحمد بدوي: ١٤٩.

(٢) خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية للدكتور/ عبد العظيم المطعني: ٢/ ٢٤٣، مكتبة وهبه – القاهرة، الطبعة الأولى ١٤١٣هـ – ١٩٩٢م.

(٣) تفسير أبي السعود: ٨/ ١٨٥.

الفريدة الثانية: "الخيام"، وقد وردت في قوله تعالى: ﴿ حُورٌ مَّقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ ﴾ {الرحمن:٧٢}.

فهؤلاء الخيرات الحسان واسعات العيون مع صفاء البياض حول السواد، محبوسات في الحجال، فلسن بطوفات في الطرقات، والعرب يمدحون النساء الملازمات للدلالة على شدة الصيانة.

والخيام جمع خيمة وهي – كما يقول اللغويون – بيت من خشب وثُمام وسائر الحشيش، وإذا كان من شعر فهو بيت، ولا يقال له خيمة، وقال غير واحد: هي كل بيت مستدير، أو ثلاثة أعواد أو أربعة، يلقى عليها الثُّمام، ويستظل بها في الحر، أو كل بيت يبنى من عيدان الشجر، وتجمع – أيضاً– على خَيِّمات وخِيم[1].

وأما المفسرون فقد ذكروا أن خيام الجنة المقصودة – هنا– هي بيوت اللؤلؤ، وهي در مجوف يسكنهن هؤلاء الحور اللاتي قصرن على أزواجهن، فلا يبغين بهم بدلاً، ولا يرفعن أطرافهن إلى غيرهم من الرجال[2].

وفي ذكر هذه الفريدة أسرار متنوعة وملامح عديدة منها:

أن هذه الفريدة فيها دلالة على تعدد مظاهر نعيم الجنة وتنوع معالمه، ومشاهد النعيم والعذاب – كما هو معلوم– من أبرز الموضوعات في القرآن الكريم، وتعد هذه المشاهد جزءاً من مشاهد القيامة: البعث، والحساب، والنعيم، والعذاب، تلك التي تعرض بعض أحوال العالم الآخر، الذي وعده الناس بعد هذا العالم الحاضر.

وهذا أبلغ في الامتنان والتفضل الذي يعد المعنى المحوري الذي تدور عليه سورة الرحمن؛ لما فيه من زيادة وتفصيل واستقصاء تتلاءم مع أمثال هذه المقامات.

وقد عنى القرآن الكريم بترسيخ الإيمان بالعالم الآخر، كما عنى بعرض مشاهده، ووصف ما ينتظر الناس فيه من حساب ونعيم وعذاب.

كما أن هذه الكلمة تشي بكمال رفاهية أهل الجنة وتمام تنعمهم، فهؤلاء الحور مخدرات مستورات لا يخرجن؛ لكرامتهن وشرفهن، قد قصرن على أزواجهن، فلا يردن غيرهم.

على أن مجيء هذه الفريدة – هنا – فيه إشارة إلى تقلب أهل الجنة في النعيم من موضع لآخر، فثمت سمة واحدة شاملة لمشاهد النعيم والعذاب، وهي أنها "مشاهد حية منتزعة من عالم الأحياء.. مشاهد

---

(١) راجع: مقاييس اللغة: ٢/ ٢٣٦ (خيم)، ولسان العرب: ١٢/ ١٩٣، والقاموس المحيط: ١١٠٥.

(٢) راجع تفسير الطبري: ٢٣/ ٧٨ وما بعدها، والكشاف: ٤/ ٤٥٣، والبحر المحيط في التفسير لأبي حيان الأندلسي: ١٠/ ٧١، تحقيق: صدقي محمد جميل، دار الفكر – بيروت، الطبعة الأولى ١٤٢٠هـ، وتفسير أبي السعود: ٨/ ١٨٧.

تقاس فيها الأبعاد والمسافات بالمشاعر والوجدانات، والخواطر والخلجات، وترتسم المواقف، وهي تتفاعل في نفوس آدمية حية، وفي شخوص من الطبيعة تخلع عليها الحياة، ثم تفترق السمات بعد ذلك في شتى المشاهد، فلا تخل بهذه السمة الأصيلة الشاملة لجميع المشاهد"[1].

وتلك سمة تحيي هذه المشاهد في النفس، وتقوي أثرها في الحس؛ وبذلك ترسخ في الذهن وتعلق بالقلب.

ولا يخفى أن التعبير بلفظ "الخيام" فيه تحاش عن تكرار مادة القصور، لو قيل (في القصور).

ويضاف إلى ذلك – أيضاً – أن مجيء هذه الفريدة في ختام الآية فيه محافظة على فواصل الآيات الكريمة، ولا غرو في أن تكون روعة القرآن راجعة – في جانب منها على الأقل – إلى ما يمتاز به القرآن من إيقاع فريد؛ لأن الإيقاع الجميل وثيق الصلة بالجانب الانفعالي للإنسان، وله أثر عميق في تقوية الشعور الديني.

ثم إن هذه الفريدة فيها دليل على الاستدارة الذي يتواءم ويتلاءم مع ما جاء في سياقات أخرى من حديث النبي – صلى الله عليه وسلم – من أن بيوت أهل الجنة "درة مجوفة طولها في السماء ستون ميلاً، في كل زاوية منها للمؤمن أهل لا يراهم الآخرون، يطوف عليهم المؤمن"[2]، ولا يمكن أن تؤدي مؤادها أو تحل محلها لفظة أخرى في تصوير هذا المعنى.

****

(١) مشاهد القيامة في القرآن لسيد قطب: ٣٨، دار المعارف – القاهرة، الطبعة السابعة ١٩٨١م.

(٢) أخرجه البخاري في كتاب بدء الخلق، باب ما جاء في صفة الجنة وأنها مخلوقة، حديث رقم ٣٢٤٣، ٤/ ١١٧ – وأخرجه مسلم في كتاب: في الجنة وصفة نعيمها، باب: في صفة خيام الجنة، حديث رقم: ٢٨٣٨، ٤/ ٢١٨٢، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي – بيروت.

المحور السادس: من أسرار الفرائد القرآنية في وصف هواء الجنة

باستقراء سياق الحديث عن وصف هواء الجنة وجدته قد احتوى على فريدة واحدة وهي:

"زمهريرا"، وقد وردت منفية في قوله تعالى: ﴿ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ ۖ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا ﴾ {الإنسان:١٣}.

فأهل الجنة يعيشون في جو لا يؤذيه حر الشمس ولا قوة البرد، فليس لديهم حر مزعج ولا برد مؤلم ولكنها ظل ظليل لا يمحوه وهج الشمس، فهم لا يبغون عنها حولاً.

والزمهرير في اللغة هو البرد الشديد المفرط، وازمهر اليوم: اشتد برده[1]، ومن ذلك قول الأعشى[2]:

مُنَعَّمَةٌ طَفْلَةٌ كَالْمَهَا ... تِ لَمْ تَرَ شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرَا

وذكر غير واحد من المفسرين[3] أن المعنى المراد من هذه الآية: أنه يمر عليهم فيها هواء معتدل لا حار محم ولا بارد مؤذ، وقيل: الزمهرير القمر في لغة طيء، قال راجزهم:

ولَيْلَةٍ ظَلَامُهَا قَد اعْتَكَرْ ... قَطَعْتُهَا والزَّمْهَرِيرُ مَا زَهَرْ

والمعنى أن هواءها مضيء بذاته، لا يحتاج إلى شمس وقمر.

واختيار هذه الفريدة في هذا المقام لما فيها من عموم الدلالة وسعتها؛ لأنها تعني البرد القاطع الشديد، وتعني القمر – أيضاً– بلغة طيء.

فإذا نظرنا إلى المعنى الأول للزمهرير يكون المراد من الآية: لا يرون فيها دفئاً ولا برداً، وإذا نظرنا إلى المعنى الآخر – وهو القمر– يكون المراد: لا يرون فيها شمساً ولا قمراً، فنفى البرد والحر ونفى القمر في آن واحد؛ ولهذا آثر التعبير بهذه الفريدة لأنها تجمع بين المعنيين.

ولا يخفى أن المعنى الأول يشير إلى أنه بين الكلمتين طباق خفي – أو مما يلحق بالطباق– لأن المقابل للزمهرير هو الحر وليس الشمس حقيقة، ولكن ذكر الشمس يستلزم الحر.

على أن كلمة "شمس" فيها مجاز مرسل بعلاقة اللزومية؛ لأن ذكر الشمس يستلزم الحر، فهو مصاحب لها وناتج عنها.

وقد تكون علاقة المجاز – هنا – هي السببية، فقد طوى المسبب واكتفى بالسبب؛ فأصل العبارة: لا يرون فيها حرا مؤذيا بسبب سطوع الشمس الحارقة، وهكذا يترهل التعبير ويتمدد، والملكة البيانية التي

---

(١) لسان العرب: ٤/ ٣٣٠ (زمهر).

(٢) ديوانه: ٩٥.

(٣) راجع في ذلك على سبيل المثال: تفسير البيضاوي ٥/ ٢٧١، وتفسير أبي السعود: ٩/ ٧٣، وروح المعاني: ١٥/ ١٧٥.

تتراءى في هذه اللغة ملكة شديدة الميل إلى التركيز، قادرة على اللمح بواسطة القرائن، بارعة أحسن البراعة في الاختصار، وحذف زوائد الكلام والاكتفاء بأصوله المجملة التي تطوي وراءها كثير من التفصيل والتفريع، ومن المقرر والمعلوم أن الإيجاز مقصد من مقاصد البلاغيين.

والتعبير بهذه الفريدة فيه إشارة – أيضا – إلى خصوصية البرد المنفي عن الجنة – وهو البرد الشديد القاطع– وهذا يعني أن هواء الجنة معتدل سجسج لا حر ولا برد.

فذكر هذه الكلمة في هذا المقام دون غيرها – حيث لم يقل (بردا) مثلا– لأن هواء الجنة غاية في الاعتدال، والاعتدال إلى البرودة أقرب، وإن كانت برودة غير مؤذية، وفي هذا نعمة جليلة ترغب في النفوس العمل من أجل الفوز بالجنة والخلود فيها، فتحقق أن ساكنيها لا يرون فيها بأبصارهم – ولا بصائرهم– شمساً ولا قمراً، ولا يحسون فيها برداً شديداً مزعجاً، ولا حراً.

ومن أسرار التعبير بهذه الفريدة – أيضاً – تحقيق سمة الإيجاز الشديد في الكلام؛ لخروجه – بإيثارها– مخرج الاحتباك، حيث دل بنفي الشمس أولا على نفي القمر ثانياً، ودل بنفي الزمهرير ثانياً على نفي الحر أولاً[1]، وعلى هذا فالمحذوف من الطرف الأول (قمرا)؛ لدلالة ذكر (الشمس) في الطرف الأول، ومن الطرف الثاني حذف (حرا) لدلالة ذكر (زمهريرا) في الطرف الثاني، وتقدير الكلام: "لا يرون فيها شمساً ولا قمرا ولا حرا ولا زمهريرا"[2].

ولعل سر التعبير بأسلوب الاحتباك في هذا المقام أنه "دل بنفي الشمس أولا على نفي القمر؛ لأن ظهوره بها؛ لأن نوره اكتساب من نور الشمس، ودل بنفي الزمهرير – الذي هو سبب البرد– ثانياً على نفي الحر الذي سببه الشمس، فأفاد هذا أن الجنة غنية عن النَّيِّرين؛ لأنها نيِّرة بذاتها، وأهلها غير محتاجين إلى معرفة زمان؛ لأنه لا تكليف فيها بوجه، وأنها ظليلة ومعتدلة دائما"[3].

فهذه الفريدة تشير إلى حال المؤمنين في الجنة وما يحتويهم من تمكن الراحة ودوام النعيم؛ فإنهم لا يرون فيها شمساً فيؤذيهم حرها، ولا زمهريرا فيؤذيهم بردها، فحصل لهم مطلق الوقاية من الأذى، وهذا لون لطيف من ألوان النعيم، ففيها من لذيذ العيش وحسن المقام ما يعظم في الأفئدة حب التمسك بها والبذل في سبيلها.

---

(١) راجع: نظم الدرر: ٢١/ ١٤٣.

(٢) التحرير والتنوير: ٢٩/ ٣٩٠.

(٣) نظم الدرر: ٢١/ ١٤٣.

ومن جليل المعاني التي يحققها التعبير بتلك الفريدة، إعلام البشر بما هو غيب عنهم – باعتدال نعيم الجنة وصفائه– فهواؤها معتدل، لا شدة حر شمس يحمي، ولا شدة برد يؤذي[1]، وفي هذا منة عظيمة ترغب في النفوس العمل من أجل الفوز بالجنة والخلود فيها.

ثم إنه في إعلام البشر بما هو غيب لطيفة أخرىٰ تدفع إلىٰ نماء العقول بزيادة العلم وتجنب الجهل، وللتعبير بهذه الفريدة أثر بارز في إحداث علاقات ربط أسهمت في ترسيخ أثر جليل يعمق في القلوب معاني الأنس والاطمئنان، والدفء بتأمل نعيم الجنة، فهم في جلسة مريحة مطمئنة، والجو حولهم دافئ في غير حر، ندي في غير برد، لا شمس تلهب النسائم، ولا زمهريرا.

****

(١) راجع: تفسير الطبري: ٢٤/ ١٠٢، وتفسير القرطبي: ١٩/ ١٣٨.

الفصل الثاني: من أسرار الفرائد القرآنية في سياق الحديث عن النار

وجاء في تسعة محاور:

المحور الأول: من أسرار الفرائد القرآنية في سياق الحديث عن وصف عذاب النار.

المحور الثاني: من أسرار الفرائد القرآنية في سياق الحديث عن وصف شفير النار.

المحور الثالث: من أسرار الفرائد القرآنية في سياق الحديث عن وصف آلات العذاب في النار.

المحور الرابع: من أسرار الفرائد القرآنية في سياق الحديث عن وصف حال أهل النار.

المحور الخامس: من أسرار الفرائد القرآنية في سياق الحديث عن وصف شراب أهل النار.

المحور السادس: من أسرار الفرائد القرآنية في سياق الحديث عن وصف طعام أهل النار.

المحور السابع: من أسرار الفرائد القرآنية في سياق الحديث عن وصف سرادق النار.

المحور الثامن: من أسرار الفرائد القرآنية في سياق الحديث عن وصف خزنة النار.

المحور التاسع: من أسرار الفرائد القرآنية في سياق الحديث عن وصف لهب النار.

المحور الأول: من أسرار الفرائد القرآنية في وصف عذاب النار

ورد في سياق الحديث عن وصف عذاب النار أربع فرائد هي على الترتيب: (نضجت- تكوى- موفورا- خبت).

الفريدة الأولى: "نضجت"، وقد وردت في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا سَوۡفَ نُصۡلِيهِمۡ نَارٗا كُلَّمَا نَضِجَتۡ جُلُودُهُم بَدَّلۡنَٰهُمۡ جُلُودًا غَيۡرَهَا لِيَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمٗا ﴾ {النساء:٥٦}.

في هذه الآية تهديد ووعيد لجميع الكافرين – الذين جحدوا ما أنزل الله على رسوله- بأنه كلما احترقت جلودهم، ولم يبق فيها حياة وإحساس، عوضهم الله جلودا غيرها ليدوم لهم ذوق العذاب ولا ينقطع.

وذكر اللغويون أن النُضج والنَضج: إدراك اللحم نهاية شيه وطبخه، يقال: جاد نضج هذا اللحم، وقد أنضجه الطاهي وأنضجه إبانه، فهو منضج ونضيج وناضج، وفي حديث لقمان بن عاد: "قريب من نضيج بعيد من نيء"، يريد أنه لا يعجله الفزع من إنضاج ما يطبخه، وهم يمدحون بذلك[1].

وهذا ما ذكره المفسرون – أيضاً – عند حديثهم عن هذه الآية. يقول الألوسي: "كلما نضجت جلودهم، أي: احترقت وتهرت وتلاشت، من نضج الثمر واللحم نُضجا ونَضجا إذا أدرك، وكلما ظرف زمان والعامل فيه (بدلناهم جلودا غيرها)، أي: أعطيناهم مكان كل جلد محترق – عند احتراقه- جلدا جديدا، مغايرا للمحترق صورة، وإن كانت مادته الأصلية موجودة بأن يزال عنه الاحتراق"[2].

والتعبير بهذه الفريدة يشير إلى أنه لم يبق في تلك الجلود المشوية حياة وإحساس أصلاً، وهذا أبلغ في الدلالة على شدة ذوقهم العذاب؛ ولذا قال الزمخشري: "ليذوقوا العذاب أي: ليدوم لهم ذوقه ولا ينقطع، كقولك للعزيز: أعزك الله، أي: أدامك على عزك وزادك فيه"[3]، فيحصل لهؤلاء الكافرين – الذين جحدوا ما أنزل الله على رسوله- الذوق الكامل لذلك التبديل ويقاسوا شدته.

كما أن هذه الفريدة تتناغم مع كلمة (الصلي) قبلها، وذلك في قوله تعالى: "سوف نصليهم نارا"؛ لأن الصلي هو بلوغ النهاية في شي اللحم على النار[4]، فهؤلاء الجاحدون كلما احترقت جلودهم أعطاهم الله –

---

(١) راجع: المفردات للراغب: ٨١٠، ولسان العرب: ٢/ ٣٧٨ (نضج)، وعمدة الحفاظ: ٤/ ١٨٦.

(٢) روح المعاني: ٣/ ٥٧،، وراجع: تفسير الطبري: ٨/ ٤٨٤، والكشاف: ١/ ٥٢٢، وتفسير القرطبي: ٥/ ٢٥٣.

(٣) الكشاف: ١/ ٥٢٢.

(٤) لسان العرب: ١٤/ ٤٦٧ (صلى).

سبحانه- مكان كل جلد محترق جلدا آخر غير محترق، وذلك أبلغ في العذاب للشخص؛ لأن إحساسه لعمل النار في الجلد الذي لم يحترق أبلغ من إحساسه لعملها في الجلد المحترق[١].

على أن تلك الكلمة أبلغ في التهديد والوعيد؛ لما في النضج من دلالة على معاني الاحتراق والتهري والتلاشي بالكلية[٢]، وهذا أبلغ في الدلالة على إصابة النار لهم "فأي رعب يبعث في النفس عندما نتخيل أصحال النار وقد نضجت جلودهم، فبدلوا بها جلودا غيرها، لا تلبث أن تنضج كرة أخرى، فتتبدل، وهكذا دواليك. وأي خوف شديد يملك المرء من هذا المصير المؤلم"[٣].

ثم إن هذه الكلمة مصورة لشدة العذاب وثقل وطأته على النفس، وأنه لا يحدث على وجه السرعة، وإنما يكون شيئا فشيئا، وبذلك يكون أشد في إيلامها، فإن الخروج من الضاد إلى الجيم ثم التاء يحدث بصعوبة في المخارج، وهذا المعنى يتفق مع ما روى عن الحسن أنه قال: "تأكلهم النار كل يوم لبيان أن إحساسهم بالعذاب في كل مرة كإحساس الذائق بالمذوق من حيث إنه لا يدخله نقصان؛ لدوام الملابسة، أو للإشعار بمرارة العذاب مع إيلامه، أو للتنبيه على شدة تأثيره، من حيث إن القوة الذائقة أشد الحواس تأثيراً أو على سرايته للباطن"[٤].

****

الفريدة الثانية: "تكوى"، وقد وردت في قوله تعالى: ﴿ يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ ۖ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ ﴾{التوبة:٣٥}.

لما كان غرض الكانزين – من الكنز والجمع- أن يكونوا عند الناس ذوي وجاهة ورياسة – بسبب الغنى- وأن يتنعموا بالمطاعم الشهية والملابس البهية، كان الكي بجباههم، ولامتلاء جنوبهم بالطعام كووا عليها، ولما لبسوه على ظهورهم كويت، ولأنهم – أيضا- إذا رأوا الفقير السائل زووا ما بين أعينهم، وازوروا عنه، وأعرضوا، وطووا كشحا، وولوه ظهورهم، واستقبلوا جهة أخرى.

---

(١) فتح البيان: ٣/ ١٥١.

(٢) راجع: روح المعاني: ٣/ ٥٧.

(٣) من بلاغة القرآن لأحمد بدوي: ٣٦ وما بعدها.

(٤) تفسير أبي السعود: ٢/ ١٩١ وما بعدها.

والكي: إحراق الجلد بحديدة ونحوها، يقال: كويته بالنار: إذا ألصقتها بجسده حتى تصل إليه حرارتها وتؤثر فيه[١].

ولم أجد من المفسرين من توقف عند هذه الفريدة إلا الطبري وابن عاشور. فهذا الطبري يقول عند حديثه عن هذه الآية: "فتكوى بها جباههم، أي: يحرق الله جباه كانزيها وجنوبهم وظهورهم"[٢].

وأما ابن عاشور فكل ما ذكره أن "الكي أن يوضع على الجلد جمر أو شيء مشتعل"[٣].

فالكي يكون في بعض المواضع دون عموم الجسد، وهذا ما يجعل تلك الفريدة أنسب وأوفق مع التنصيص على ذكر الجباه والجنوب والظهور في تلك الآية.

كما أن هذه الفريدة هي التي تتناسب مع قوله تعالى "يحمى" قبل ذلك – دون (تصهر)– لأن الإحماء معناه الوصول إلى درجة حرارة مرتفعة، دون درجة الانصهار.

والمتأمل في سياق هذه الآية يجد أن العقوبة – هنا– من جنس العمل؛ لأنهم لما منعوا إنفاق جزء من المال – الذي هو حق الله– عوقبوا بكي أجزاء من أجسادهم، دون كامل الأجساد.

على أن ذكر هذه الكلمة في هذا المقام يتناسب مع النص على ذكر الذهب والفضة من جنس المال، وهما في حقيقة أصلهما نوع من المعدن، فيناسبه الإحماء والكي، فهؤلاء الكانزون لم يطلبوا بأموالهم إلا الأغراض الدنيوية، وأن يكون ماء وجوههم مصونا عند الناس، يتلقون بالجميل، ويحيون بالإكرام، ويبجلون ويحتشمون[٤].

وإنما خص الجباه والجنوب والظهور لأن التألم بكيها أشد لما في داخلها من الأعضاء الشريفة، وقيل ليكون الكي في الجهات الأربع: من قدام وخلف وعن يمين ويسار، وقيل لأن الجمال في الوجه، والقوة في الظهر والجنبين، والإنسان إنما يطلب المال للجمال والقوة.[٥]

ولعل التخصيص – هنا– لتعميم جهات الأجساد بالكي، فإن تلك الجهات متفاوتة ومختلفة في الإحساس بألم الكي، فيحصل مع تعميم الكي إذاقة لأصناف من الآلام.

---

(١) راجع: لسان العرب: ١٥/ ٢٣٥ (كوى).

(٢) تفسير الطبري: ١٤/ ٢٣٠.

(٣) التحرير والتنوير: ١٠/ ١٧٩.

(٤) راجع: الكشاف: ٢/ ٢٦٨.

(٥) راجع: فتح البيان: ٥/ ٢٩٥.

وسلك في التعبير عن التعميم مسلك الإطناب بالتعدد؛ لاستحضار حالة ذلك العقاب الأليم، تهويلاً لشأنه، فلذلك لم يقل: فتكوى بها أجسادهم[١].

****

الفريدة الثالثة: "موفورا" ، وقد وردت في قوله تعالى: ﴿ قَالَ اذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ جَزَاءً مَّوْفُورًا ﴾ {الإسراء:٦٣}.

وهذه الآية جواب من الله – تعالى– عن سؤال إبليس التأخير إلى يوم القيامة، والمراد منها: امض لشأنك الذي نويته، فمن تبعك من ذرية آدم وأطاعك فإن جهنم جزاؤك وجزاؤهم ثوابا مكثورا مكملاً.

يقول الراغب عن أصل هذه الفريدة: "الوفر: المال التام، يقال: وفرت كذا: تممته وكملته، أفِرُ وفْرا ووُفورا وفِرَة ووفُّرتُه على التكثير، قال تعالى: (فإن جهنم جزاؤكم جزاء موفورا)، ووفرت عرضه: إذا لم تنتقصه، وأرض في نبتها وفرة: إذا كان تاما، ورأيت فلانا ذا وفارة، أي: تام المروءة والعقل"[٢].

وأما المفسرون فقد ساروا على نهج اللغويين، فهذا أبو السعود يقول: "جزاء موفورا، أي: جزاء مكملا من قولهم: فِرّ صاحبك عرضه فرة، أي: وفر، وهو نصب على أنه مصدر مؤكد لما في قوله تعالى: (فإن جهنم جزاؤكم) من معنى: تجازون، أو للفعل المقدر، أو حال موطئة لقوله (موفورا).."[٣].

والسر في مجي هذه الفريدة – هنا– للإشارة إلى دفع توهم غير المراد؛ فإن كثرة أتباع إبليس من ذرية آدم ربما كان موهما إلى عدم جزائهم على الوجه الأوفى والأكمل، فجيء بهذه الفريدة احتراسا عن ذلك؛ ولذا يقول الطبري: "عذاب جهنم جزاؤهم، ونقمة من الله من أعدائه، فلا يعدل عنهم من عذابها شيء"[٤].

كما أن هذه الفريدة فيها دلالة على استحقاقهم الجزاء المقدر لهم، وتأكيد على تمام العدل الإلهي، فإبليس وأتباعه جزاؤهم جهنم جزاء وافيا مكملا، لا يدخر منه شيء بما يستحقون من سيء الأعمال، وما دنسوا به أنفسهم من قبيح الأفعال.

---

(١) راجع: التحرير والتنوير: ١٠/ ١٧٩.

(٢) المفردات: ٨٧٧.

(٣) تفسير أبي السعود: ٥/ ١٨٣.

(٤) تفسير الطبري: ١٧/ ٤٩٠.

على أن هذه الكلمة تشير – أيضا– إلى سعة جهنم واستيعابها لهم جميعا، دون أن تضيق بهم، أو أن تعجز عن الإحاطة بهم؛ ليكون هذا متناغما مع قوله تعالى في آية أخرى: ﴿ يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ ﴾ {ق:٣٠}.

****

الفريدة الرابعة: "خبت"، وقد وردت في قوله تعالى: ﴿ وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِهِۦ ۖ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا ۖ مَّأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَٰهُمْ سَعِيرًا ﴾ {الإسراء:٩٧}.

تقرر الآية الكريمة أن من يهد الله للإيمان به وتصديق ما جاء به محمد – صلى الله عليه وسلم– فهو المهتدي إلى الحق، المصيب سبيل الرشد، ومن يضلل فلا يهديهم أحد، ويبعثون في أقبح صورة وأشنع منظر، حيث يسحبون يوم القيامة على وجوههم كما يفعل في الدنيا بمن يبالغ في هوانه وتعذيبه، ثم يكون منقلبهم ومصيرهم جهنم، كلما سكن لهيبها زاده الله – سبحانه– لهباً وتوقدا بأن يعيدهم إلى ما كانوا عليه، فتستعر وتتوقد.

ويقول اللغويون عن هذه الفريدة: "خبت النار: أي انطفأ لهيبها وسكن حرها، كأنما تصور عليها خباء يسترها من رماد ويغشيها"[1].

وقد ذكر أبو حيان عند حديثه عن هذه الآية: "يقال: خبت النار تخبو: إذا سكن لهبها، وخمدت: إذا سكن جمرها وضعف، وهمدت: إذا طفئت جملة"[2]، والمراد أنه كلما سكن لهبها – بأن أكلت جلودهم ولحومهم ولم يبق ما تتعلق به النار وتحرقه– زدناهم لهباً وتوقدا، بأن أعدناهم على ما كانوا، فاستعرت النار بهم وتوقدت[3].

فالتعبير بهذه الفريدة فيه دلالة على أنه أنكى في العذاب وأشد في الإذلال والإهانة؛ لأنه أقطع للأمل من نفوسهم، وأبعث لخيبة الرجاء، وأزيد في تحسرهم على تكذيبهم البعث، وأدخل في الانتقام منهم.

فهؤلاء الذين أضلهم الله عن الحق وخذلهم، ولم يوفقهم للإيمان وتصديق رسوله؛ كانت العقوبة لهم على إنكارهم الإعادة بعد الإفناء بتكريرها مرة أخرى؛ ليروها عينا، حيث لم يعملوا بها برهانا.

---

(١) راجع: لسان العرب: ١٤/ ٢٢٣ (خبت)، وعمدة الحفاظ: ١/ ٤٨٧ وما بعدها.

(٢) البحر المحيط: ٧/ ٩٦.

(٣) راجع: روح المعاني: ٨/ ١٦٧.

والمتأمل في هذا الكلام يجد أنه قد أفصح عنه قوله تعالى بعد ذلك: ﴿ ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُم بِأَنَّهُمۡ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمٗا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ خَلۡقٗا جَدِيدًا ﴾ {الإسراء:٩٨}، يقول الزمخشري: "كأنهم لما كذبوا بالإعادة بعد الإفناء جعل الله جزاءهم أن سلط النار على أجزائهم تأكلها وتفنيها ثم يعيدها، لا يزالون على الإفناء والإعادة؛ ليزيد ذلك في تحسرهم على تكذيبهم البعث، ولأنه أدخل في الانتقام من الجاحد"[١].

ثم إن هذه الفريدة تشير – أيضا– إلى أن عذاب هؤلاء الذين خذلهم الله عن إصابة الحق لا ينقطع ولا يخفف، وإن تصور في نارهم خبو زيدت سعيرا وإيقادا لقوله في موضع آخر: ﴿ لَا يُفَتَّرُ عَنۡهُمۡ ﴾ {الزخرف:٧٥}؛ ولذا يقول القرطبي: "وسكون التهابها من غير نقصان في آلامهم، ولا تخفيف عنهم من عذابها"[٢].

على أن هذه الكلمة فيها إشارة إلى التهكم وبادئ الإطماع المسفر عن خيبة؛ "لأنه جعل ازدياد السعير مقترناً بكل زمان من أزمنة الخبو، كما تفيد كلمة (كلما) التي هي بمعنى كل زمان، وهذا في ظاهره إطماع بحصول خبو لورود لفظ (الخبو) في الظاهر، ولكنه يؤول إلى يأس منه؛ إذ يدل على دوام سعيرها في كل الأزمان؛ لاقتران ازدياد سعيرها بكل أزمان خبوها"[٣].

****

(١) الكشاف: ٢/ ٦٩٥.

(٢) تفسير القرطبي: ١٠/ ٣٣٤.

(٣) التحرير والتنوير: ١٥/ ٢١٨.

المحور الثاني: من أسرار الفرائد القرآنية في وصف شفير النار

حوى هذا السياق ثلاث فرائد في آية واحدة في سورة التوبة، والفرائد الثلاث هي: "جرف" و"هار" و"انهار"، وقد وردت هذه الفرائد في قوله تعالى: ﴿ أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ ۗ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ {التوبة: ١٠٩}.

جاءت هذه الآية في سياق الحديث عن المسجد الضرار الذي بناه المنافقون بالمدينة ليناوئوا به الإسلام ويضاروه، ويكون مأوى لهم ولمن يعادي محمداً – صلى الله عليه وسلم– وليفرقوا بين المسلمين، ويشتتوا جمعهم بعد أن هالهم توحد المسلمين في ظل الإسلام.

والمسجد الذي أشارت إليه الآيات أنه أسس على التقوى من أول يوم هو مسجد قباء الذي بناه النبي – صلى الله عليه وسلم– عقب هجرته إلى المدينة في الأيام الأولى منها قبل بناء المسجد الكبير.

ويذكر اللغويون أن "الجرف" هو المكان الذي يأكله الماء من سيل وغيره، فيجرفه، أي: يذهب به، ومنه: اجترف الدهر ماله، وطاعون جارف من ذلك، وجرفت الشيء: قشرته، وكذلك جلفته.

وقوله تعالى: "على شفا جرف هار" أي: ساقط متداع، يقال: هار البئر يهور، وهار البناء يهور: إذا تداعى وسقط، والأصل: هاور، فقلبت الكلمة بأن قدمت لامها وأخرت عينها، فأعلت إعلال المنقوص نحو: شاكٍ ولابٍ، من شوكة السلاح ولوب الغمامة[1].

وقد ذكر الزمخشري أن المعنى المقصود من هذه الآية: "أسس بنيانه على أضعف قاعدة وأرخاها وأقلها بقاء، وهو الباطل والنفاق الذي مثله (جرف هار) في قلة الثبات والاستمساك، ووضع (شفا الجرف) في مقابلة التقوى لأنه جعل مجازا عما ينافي التقوى، فإن قلت: ما معنى (فانهار به في نار جهنم)؟ قلت: لما جعل الجرف الهائر مجازا عن الباطل قيل: فانهار به في نار جهنم، على معنى: فطاح به الباطل في نار جهنم؛ إلا أنه رشح المجاز فجيء بلفظ الانهيار الذي هو للجرف، وليصور أن الباطل كأنه أسس بنيانه على شفا جرف هار من أودية جهنم، فهوى به ذلك الجرف، فهو في مقرها"[2].

فهذه الفرائد الثلاث تصور مدى ضعف البنيان الذي أقيم على غير تقوى الله، وعدم تماسكه وقرب سقوطه وتهدمه؛ لقيامه على أرض هشة رخوة غير صلبة، سرعان ما تنهار به إلى هوة سحيقة.

---

(١) راجع: المفردات للراغب: ٤٥٩، ولسان العرب: ٥/ ٢٦٧ (هور)، ٩/ ٢٥ (جرف)، ١٤/ ٤٣٦ (شفى)، وعمدة الحفاظ: ٢/ ٢٨.

(٢) الكشاف: ٢/ ٣١٢.

على أن التركيب في قوله: ﴿أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَـٰنَهُۥ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ﴾ استعارة تمثيلية، حيث شبهت الهيئة الحاصلة من بناء المسجد الضرار – على الكفر والمكر والإفساد– بالهيئة الحاصلة من بناء حسي على أرض رخوة لا ثبات لها، والجامع هو سرعة الفناء مع خيبة رجاء بانيها.

وكان زعيم من زعماء المنافقين هو أبو عمرو الراهب – وهو من الخزرج وكان قد تنصر قبل الإسلام – صاحب فكرة المسجد الضرار ليفت في عضد المسلمين، ويفرق بينهم.

وقبيل غزوة تبوك دعوا رسول الله – صلى الله عليه وسلم– ليصلي لهم فيه إماما؛ ليضفوا على مسجدهم هالة من الشرف والفضل، ولكن الله أنبأه بكيدهم فلم يصل فيه، بل سلط عليه من هدمه وسواه بالأرض.

ولا يخفى أن قوله "فانهار به في نار جهنم" كناية عن شقاء الباني في الدنيا بتهدم بنائه، وفي الآخرة بالخلود في الجحيم. يقول أبو السعود: "فانهار به في نار جهنم مثل ما بنوا عليه أمر دينهم في البطلان وسرعة الانطماس بما ذكر، ثم رشح بانهياره في النار، ووضع بمقابله الرضوان؛ تنبيها على أن تأسيس ذلك على أمر يحفظه من النار ويوصله إلى الرضوان ومقتضياته التي أدناها الجنة، وتأسيس هذا على ما هو بصدد الوقوع في النار ساعة فساعة، ثم مصيرهم إليها لا محالة""[1].

****

(١) تفسير أبي السعود: ٤/ ١٠٣.

المحور الثالث: من أسرار الفرائد القرآنية في وصف آلات العذاب في النار

اشتمل سياق الحديث عن وصف آلات العذاب على ثلاث فرائد وهي: (مقامع- جيد- مسد).

الفريدة الأولى: "مقامع"، وقد وردت هذه الفريدة في قوله تعالى: ﴿هَٰذَانِ خَصۡمَانِ ٱخۡتَصَمُواْ فِي رَبِّهِمۡۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ قُطِّعَتۡ لَهُمۡ ثِيَابٞ مِّن نَّارٖ يُصَبُّ مِن فَوۡقِ رُءُوسِهِمُ ٱلۡحَمِيمُ ١٩ يُصۡهَرُ بِهِۦ مَا فِي بُطُونِهِمۡ وَٱلۡجُلُودُ ٢٠ وَلَهُم مَّقَٰمِعُ مِنۡ حَدِيدٖ﴾ {الحج:١٩-٢١}.

فهؤلاء الكفرة تقطع لهم ثياب من نار مهولة، فتذيب جلودهم وأجسادهم، ويمتد العذاب شوطاً آخر حين يصب فوق رؤوسهم الحميم، فينفذ من الجمجمة حتى يخلص إلى جوفه، فيسلت ما في جوفه حتى يمرق من قدميه، ويضاف إلى عذابهم – بالصهر بحرارة الحميم- القمع بالحديد.

والمقامع: جمع مقمع، وهو ما يضرب به ويذلل؛ ولذلك يقال: قمعته فانقمع، أي: كففته فكف[1].

وقد ذكر الشيخ صديق خان معنى قريباً من هذا حيث يقول: "والمقامع: جمع مقمعة ومقمع، يقال قمعته: ضربته بالمقمعة، وهي قطعة من حديد، يقال: قمعه يقمعه – من باب: قطع- إذا ضربه بشيء يزجره به ويذله، والمقمعة: المطرقة، وقيل: السوط، وسميت المقامع لأنها تقمع المضروب، أي: تذله، والمعنى: لهم مقامع كائنة من حديد يضربون بها"[2].

فهذه الفريدة تتناسب مع مقام تفصيل وبيان ما أعد للكافرين في جهنم من صنوف العذاب وألوان العقاب، ابتداء بالثياب المقطعة من النار، ومرورا بالحميم الذي يصب من فوق رؤسهم ويصهر به ما في بطونهم والجلود، وانتهاء بالمقامع التي تضرب الخزنة بها رؤوسهم، إذا أرادوا الخروج من النار حتى ترجعهم إليها، فلشدة ما يغم هؤلاء الكفرة ويمنعهم من التنفس، يحاولون الخروج، فيعادون إليها، فيحصل لهم ألم الخيبة، ويقال لهم – إهانة لهم وحطا من شأنهم- ذوقوا عذاب الحريق.

فقد جاء لفظ "المقامع" معبراً عن التدفق المتلاحق لألوان العذاب، وذلك التحريك العنيف في إطار صورة حرارية معبرة عن مهانة من يضرب بتلك المقامع وذلته، وصوت الكلمة يتوسطه صوت القاف المفخم الذي يتبعه الألف، فضلاً عن الاستعلاء في صوت العين مع الضم.

---

(١) المفردات للراغب: ٦٨٤، وراجع: مقاييس اللغة: ٥/ ٢٨ (قمع).

(٢) فتح البيان: ٩/ ٣٠ وما بعدها، وراجع: تفسير الطبري: ١٨/ ٥٩٣، وتفسير أبي السعود: ٦/ ١٠١.

ثم إن كلمة "مقامع" لازمة في هذا السياق ومتمكنة في موضعها من النظم؛ بسبب محاولة أهل النار الخروج منها – مرة بعد مرة– فاقتضت هذه الحال من وسائل العذاب ما يقمعهم ويردهم إليها، ولا شيء غير المقامع المتخذة من الحديد لتزجرهم وتذلهم وتقمعهم.

فقد روى أبو سعيد الخدري أن النبي – صلى الله عليه وسلم– قال: "لو أن مقمعاً من حديد وضع في الأرض فاجتمع الثقلان ما أقلوه من الأرض، ولو ضرب الجبل بمقمع من حديد لتفتت ثم عاد كما كان"[1].

ويضاف إلى ذلك أن هذه الكلمة تتناغم مع ما ورد في صدر هذه الآيات من قوله تعالى: "هذان خصمان اختصموا في ربهم.." الذي يوحي بنوع من التجاذب والمغالبة بين الخصمين المختصمين، فكل فريق يريد أن يغلب الآخر وينتصر لنفسه، فكان جزاء الكافرين مقامع من حديد؛ ليكون الجزاء مشاكلا للعمل وعلى وفقه ولفته، وقد روي عن الحسن "أن النار تضربهم بلهبها فترفعهم، حتى إذا كانوا في أعلاها ضربوا بالمقامع فهووا فيها سبعين خريفاً، وقيل لهم: ذوقوا العذاب الغليظ المنتشر العظيم الإهلاك"[2].

كما تلمح هذه الفريدة – أيضا– إلى العذاب النفسي والكرب العظيم الذي يعيشه أولئك الكفرة، فحين تشتد بهم الغموم والكروب – بين رفع ألسنة النيران وخفضها لهم– فيحاولون الخروج منها، يعادون في النار زيادة في التمكن والاستقرار، وفي هذا عذاب نفسي عظيم يردفه عذاب نفسي آخر هو عذاب الإهانة، بأن يقال لهم: ذوقوا عذاب الحريق.

والمتأمل في هذه الفريدة يجد أنها تتخذ تأثيراً شديدا لصلتها بالطابع الحيواني الذي يذكر بمسلك الكفرة المنحط في الأرض – عقيدة وتصرفات– وكذلك ترسم الأجواء الخانقة؛ لأن المعذب محوط من كل جانب، فهو داخل سجن من نار، وسجن يحيط بذاته، وقطع من حديد يضرب بها ويقمع – كلما أراد الخروج وعزم على الهروب– فالمحاصرة ألم نفسي يزيد الألم الحسي.

---

(١) أخرجه أحمد وأبو يعلى والحاكم، وصححه البيهقي. راجع: مسند الإمام أحمد بن حنبل: ١٧/ ٣٤٤، ومسند أبي سعيد الخدري، حديث رقم: ١١٢٣٣، تحقيق: شعيب الأرنؤوط – عادل مرشد وآخرون، مؤسسة الرسالة – بيروت، الطبعة الأولى ١٤٢١هـ – ٢٠٠١م، والمستدرك على الصحيحين للحاكم النيسابوري: ٤/ ٦٤٣، كتاب الأهوال، حديث رقم: ٨٧٧٣، تحقيق: مصطفى عبد القادر، دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة الأولى ١٤١١هـ – ١٩٩٠م.

(٢) الكشاف: ٣/ ١٥٠.

والعبارة الأخيرة تفتح بابا لتصوير أنواع كثيرة وصنوف عديدة من عذابات أهل الكفر، وما يلاقونه فيها من أهوال وشدائد، وقد ذكرت في مواضع أخرىٰ من القرآن، نحو: السحب علىٰ الوجوه في النار، ونضج الجلود، وسلاسل النيران وأغلالها، وغير ذلك كثير.

****

الفريدة الثانية والثالثة: "جيد" و"مسد"، وقد وردتا في قوله تعالىٰ: ﴿ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ﴾ {المسد:٥}

جاءت سورة المسد بشرىٰ لرسول الله – صلىٰ الله عليه وسلم– ولأتباعه – وهم يومئذ قليل مستضعفون– بأن النصر لهم، وأنهم علىٰ الحق الذي سيبسط سلطانه، وأن من كان من حزب أبي لهب وامرأته ليس لهم إلا الخسران المبين والترهج في قتم الضلالة.

والجيد: العنق، وغلب في الاستعمال علىٰ عنق المرأة، وعلىٰ محل القلادة منه، فقل أن يذكر العنق في وصف النساء في الشعر العربي إلا إذا كان عنقاً موصوفاً بالحسن، وقد جمعها امرؤ القيس في قوله[1]:

وَجِيدٍ كَجِيدِ الرِّئْمِ لَيْسَ بِفَاحِشٍ إِذَا هِيَ نَصَّتْهُ وَلَا بِمُعَطَّلِ

والمسد: ليف من ليف اليمن شديد، والحبال التي تفتل منه تكون قوية وصلبة[2].

فهاتان الفريدتان تصوران الهيئة التي تكون عليها امرأة أبي لهب في جهنم يوم القيامة، وهي هيئة تجمع بين المهانة السوءاء والإيلام الشديد.

أما المهانة فهي العربية الشريفة التي كانت تتصايح في الناس أن قريشاً قد علمت أنها ابنة سيدها، فكانت من هوانها وإهانتها أن يجعل في جيدها حبل من مسد يوم القيامة، وهي في وسط قومها الذين كانت في الدنيا تتفاخر بينهم بحليها وزينتها.

وقد أشار الزمخشري إلىٰ هذا المعنىٰ حيث يقول: "في جيدها حبل مما مسد من الحبال، وأنها تحمل تلك الحزمة من الشوك وتربطها في جيدها كما يفعل الحطابون؛ تحسيساً لحالها وتحقيرا لها، وتصويراً لها بصورة بعض الحطابات من المواهن؛ لتمتعض من ذلك ويمتعض بعلها، وهما في بيت العز والشرف، وفي منصب الثروة والجدة"[3].

---

(١) ديوان امرئ القيس: ١٦.

(٢) راجع لسان العرب: ٣/ ٤٠٢ (مسد)، وروح المعاني: ١٥/ ٥٠٠.

(٣) الكشاف: ٤/ ٨١٦.

فحال امرأة أبي لهب في تكليف نفسها المشقة الفادحة – للإفساد بين الناس وإيقاد نيران العداوة بينهم– بمنزلة حاملة الحطب التي في عنقها حبل خشن، تشد به ما تحمله إلى عنقها حين تستقل به، وهذه أبشع صورة تظهر بها امرأة تحمل الحطب وهي على تلك الحال.

ثم إن اصطفاء كلمة "الجيد" فيه إشارة إلى أنه ليس لها يوم القيامة من الحلي الذي يكون في جيدها إلا حبل من مسد، فاصطفى الاسم الذي يذكر في سياق المدح والوصف الجميل، فأورده في سياق العذاب والهوان، على سبيل التهكم، فهو من باب: "تحية بينهم ضرب وجيع"، وهو باب في العربية وسيع بديع نفيع.

وزاد الأمر تهكماً أن جعل قلادتها في جيدها حبلاً من حديد ممسود، أي: محكم الفتل[1]، فكلمة "مسد" تفهم معنى شدة الفتل؛ ولذا يقال: فلان ممسود، أي: محكم الخلقة، ذو بنية جسدية متماسكة.

على أن قوله "مسد" صفة لموصوف محذوف، أي: حبل من حديد ممسود، وهو وصف بالمصدر، كقولنا: عمر عدل، إبلاغاً في كماله في الصفة وكمال الصفة فيه، كما هو شأن الوصف بالمصدر في سنة البيان بالعربية.[2]

فاختيار هاتين الفريدتين فيه عظيم تصوير لما تكون عليه امرأة أبي لهب يوم القيامة؛ لما كانت عليه من سيء الخلق في مسيرها في هذه الدنيا.

والمتأمل في النظم الكريم يجد أن هاتين الفريدتين قد رجعت آخر السورة على أولها؛ فإن من كانت امرأته مصورة بصورة حطابة على ظهرها حزمة حطب، معلق حبلها في جيدها، فهو في غاية الحقارة والتباب والخساسة والخسارة[3].

وقدم الخبر من قوله: "في جيدها" للاهتمام بوصف تلك الحالة الفظيعة التي عوضت فيها بحبل في جيدها عن العقد الذي كانت تحلي به جيدها في الدنيا، فتربط به؛ إذ كانت هي وزوجها من أهل الثراء وسادة أهل البطحاء[4].

****

(١) راجع المفردات: ٧٦٨.

(٢) راجع: أسرار البلاغة القرآنية في سورة "تبت يدا أبي لهب للدكتور/ محمود توفيق محمد سعد: ١١٤ وما بعدها، مكتبة وهبة، القاهرة، الطبعة الأولى ١٤٣٨هـ – ٢٠١٧م.

(٣) راجع: نظم الدرر: ٢٢/ ٣٤٢ وما بعدها.

(٤) التحرير والتنوير: ٣٠/ ٦٠٧.

المحور الرابع: من أسرار الفرائد القرآنية في وصف حال أهل النار

ورد في هذا السياق فريدتان اثنتان هما: (تلفح - وكبكبوا)، وقد جاءت الفريدة الأولى في

قوله تعالى: ﴿ تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ ﴾ {المؤمنون:١٠٤}.

تشير الآيات إلى أن من خفت موازينه فمصيره جهنم ومستقره، وهي دار لا ينفك أسيرها، ولا ينطفئ سعيرها، حيث تضربهم النار وتأكل لحومهم وجلودهم، وهم متقلصو الشفاه عن الأسنان مع عبوسة الوجوه وتجعدها وتقطبها، شغل من هو ممتلئ الباطن كراهية لما دهمه من شدة المعاناة وعظيم المقاساة في دار التجهم، كما ترى الرؤوس المشوية.

واللفح – كما يقول السمين الحلبي – الضرب والإصابة، يقال: لفحته النار والسموم ونفحته، أي: أصابته، إلا أن اللفح أشد من النفح[١].

ويقول الألوسي: "واللفح مس لهب النار الشيء، وهو – كما قال الزجاج– أشد من النفح تأثيراً، والمراد: تحرق وجوههم النار"[٢].

والتعبير بهذه الفريدة لأن اللفح – كما يقول العلماء– أشد تأثيراً من النفح، ولدلالتها على شدة الإصابة – أيضاً – ومن ثم جاءت متناسبة في هذا السياق مع صفة (الكلوح) التي تعني "التكشر في عبوس، والكالح الذي قد تَشَمَّرت شفتاه وبدت أسنانه"[٣].

ولما كان المقام – هنا – مقام تهويل وتفخيم أتى: بـ"اللفح" الذي هو أشد من النفح، وجاء التعبير بـ"النفح" في قوله تعالى: ﴿ وَلَئِن مَّسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴾ {الأنبياء:٤٦} تنبيهاً على أنهم إذا أصابهم أدنى شيء من ذلك استغاثوا وجأروا؛ ومن ثم نكرت "النفحة" للتقليل.

على أنه جيء باللفح – هنا – لمناسبة ذكر الوجوه خصوصا؛ لأنه لا يكون إلا فيها[٤]، وأما الحرق فعام يشمل الجسد كله؛ ولذا يقول أبو السعود: "واللفح كالنفح إلا أنه أشد تأثيراً منه، وتخصيص الوجوه

---

(١) راجع: عمدة الحفاظ: ٤/ ٣٢.

(٢) روح المعاني: ٩/ ٢٦٥.

(٣) تفسير القرطبي: ١٢/ ١٥٢.

(٤) يقول ابن منظور: "لفحته النار تلفحه لفحاً ولفحانا: أصابت وجهه.. وكذلك لفحت وجهه". لسان العرب: ٢/ ٥٧٨ (لفح).

بذلك لأنها أشرف الأعضاء، فبيان حالها أزجر عن المعاصي المؤدية إلى النار، وهو السر في تقديمها على الفاعل"[1].

ثم إن اللفح فيه إشارة إلى سرعة الإصابة، وفيه نوع من المباغتة والمفاجأة، والوجه أشرف الأعضاء ورمز البدن، وسفعه أشد على النفس وأصعب؛ لأنه لم يترك لها مجالا للراحة والاسترواح والتقاط الأنفاس وأخذ الحيطة.

ولا يخفى أن الكلمة مصورة بحروفها إلى سرعة الحدث بسرعة نطق حروف تلك الكلمة، فالفاء الشفوية تبعها الحاء المهموسة، يشير إلى المباغتة والمفاجأة، وإصابة النار لهم على سبيل السرعة.

****

الفريدة الثانية: "كبكبوا"، وقد وردت هذه الفريدة في قوله تعالى: ﴿ فَكُبْكِبُوا۟ فِيهَا هُمْ وَٱلْغَاوُۥنَ ﴾ {الشعراء:٩٤}.

تشير الآيات السابقة إلى أن أهل الموقف قد عرفوا أن الجنة قربت لهم بأيسر وجه؛ تعجيلاً لسرورهم وزيادة في شرفهم، وكشفت النار كشفاً عظيما سهلا للضالين الهالكين، ثم حقر معبوداتهم الذين زعموا أنهم ينتفعون لهم ويَقُونهم شر هذا اليوم، وكان جزاؤهم جميعًا أن قلبوا وصرعوا ورموا في مهواة الجحيم قلبا عنيفا مضاعفا كثيرا، بعضهم في إثر بعض.

والكب – كما يقول اللغويون – إسقاط الشيء على وجهه، والكبكبة: تكرير الكب، وهو تدهور الشيء في هوة[2].

ويقول الطبري، عند حديثه عن هذه الآية: "فرمي بعضهم في الجحيم على بعض، وطرح بعضهم على بعض منكبين على وجوههم"[3].

ولعل اختيار هذه الفريدة في هذا المقام لأن الكبكبة فيها تكرير للفعل مرة بعد مرة، وهذا أبلغ في الإهانة والإذلال لتلك الآلهة ولعابديها، حيث يلقون في جهنم على رؤوسهم بعضهم على بعض إلى أن يستقروا في قعرها.

---

(١) تفسير أبي السعود: ٦/ ١٥١.

(٢) راجع: المفردات للراغب: ٦٩٥، ولسان العرب: ١/ ٦٩٦ (كبب)، وعمدة الحفاظ: ٣/ ٣٦٣.

(٣) تفسير الطبري: ١٩/ ٣٦٧.

ويطيب لنا أن نورد كلام الزمخشري، حيث يتملى الآية بذوق رفيع، يكاد يفوق المعاصرين؛ لكونه يذكر سبب تكرير الحركة؛ إذ يقول: "الكبكبة تكرير الكب، وجعل التكرير في اللفظ دليلاً على التكرير في المعنى، كأنه إذا ألقي في جهنم ينكب مرة بعد مرة حتى يستقر في قعرها"[١].

على أن انضمام الشفتين ثلاث مرات[٢] في هذه الفريدة "كبكبوا" يصور حركة تكوير الكافر وهو يتدحرج في أعماق جهنم حتى يصل إلى القعر، ويتجمع جسده كالكرة، وهذا كما تتجمع الشفاة في لفظ هذه الفريدة.

والجدير بالذكر أن اقتصار الدارسين القدامى على تجسيم تكرير الحركة جعل المادة المدروسة ضئيلة، فلا تقع في كتبهم إلا على النذر القليل، وهو يرتكز على الحروف، وليس على الحركات، أما المعاصرون فقد تكلموا على الرسم بالحرف والحركة، ورسم الحركة البطيئة والقوية والمتكررة[٣].

والكبكبة فيها كب على الوجوه – كما يذكر اللغويون– ولا يخفى ما في هذا الأمر من إذلال وإهانة؛ لأن الوجه أشرف الأعضاء ورمز البدن، فلا يؤبه لتلك الأصنام ولعابديها ولا يعتد بهم.

ثم إن هذا الفعل أبلغ في تصوير ضعف هؤلاء العبدة – الذين برزت لهم الجحيم– وضعف آلهتهم واستبعاد نصرتهم إياهم، والمدلول عليها من قوله تعالى: ﴿ هَلْ يَنصُرُونَكُمْ أَوْ يَنتَصِرُونَ ﴾ {الشعراء:٩٣}، فقد كانوا يزعمون أن تلك المعبودات يشفعون لهم ويقونهم شر هذا اليوم فيمنعون عنهم ما برز لهم أو ينتصرون هم بالدفع عن أنفسهم، فتسبب عن هذا التبريز والقول إظهار قدرته – تعالى– وعجزهم بقذفهم فيها.

كما أن هذه الفريدة فيها إشارة – أيضاً – إلى تدهور هؤلاء المعذبين في قعر جهنم، بدلالة قوله "فيها". يقول السمين الحلبي: "الكبكبة" تدهور الشيء في هوة"[٤].

****

(١) الكشاف: ٣/ ٣٢٢.

(٢) مرة على الكاف لوجود الضم ومرتين على الباء لأنه حرف شفوي شديد.

(٣) راجع: دراسات فنية في القرآن الكريم للدكتور/ أحمد ياسوف: ٢٠٠.

(٤) عمدة الحفاظ: ٣/ ٣٦٣.

المحور الخامس: من أسرار الفرائد القرآنية في وصف شراب أهل النار

ورد في ثنايا هذا السياق فريدتان اثنتان هما: (شوب – أمعاءهم)، وقد جاءت الفريدة الأولى في قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ ﴾{الصافات:٦٧}.

تقرر هذه الآية أن هؤلاء المشركين يذهب بهم عن مقارهم ومنازلهم في الجحيم – وهي الدركات التي أسكنوها– إلى شجرة الزقوم، فيأكلون إلى أن يتملئوا، ويسقون بعد ذلك ماء محموماً – وهو الذي أسخن فانتهى حره– يقطع أمعاءهم؛ ليكون أفظع لعذابهم وأشنع لحالهم.

وأصل الشوب – كما يقول الراغب – الخلط، وسمي العسل شوباً؛ إما لكونه مزاجا للأشربة، وإما لما يختلط به من الشمع، وقيل: ما عنده شوب ولا روب، أي: عسل ولبن[1].

وهذا المعنى نفسه هو ما ذكره المفسرون عند حديثهم عن هذه الآية. يقول الزمخشري: "شوبه: أي مزاجه من حميم، يشوي وجوههم ويقطع أمعاءهم، كما قال في صفة شراب أهل الجنة، ومزاجه من تسنيم"[2].

فالتعبير بهذه الفريدة فيه إشارة إلى التناسب بينها وبين كلمة "حميم" بعدها، والتي تعني الماء المحموم، وهو الذي أسخن فانتهى حره، وفي هذا من الشناعة والفظاعة ما لا يخفى.

كما أن هذه الفريدة فيها دلالة على عدم الخلوص والصفاء، وهي بهذا تتناسب مع صفة "الحميم" نفسه في عدم الصفاء والخلوص وما فيه من كدر، وشربهم ذلك لغلبة عطشهم بما أكلوا من الشجرة، فإذا شربوا تقطعت أمعاؤهم.

و"الزقوم" كلمة تنبئ عن صعوبة البلع، ثم يأتي معها شوب من حميم ليزيد البلع صعوبة على صعوبته، فقد ذكر الطعام بتلك الكراهة والبشاعة، ثم ذكر الشراب بما هو أكره وأبشع.

على أن هذه الفريدة فيها تأكيد – أيضاً – على انتفاء كل سبيل للراحة في النار، فالمتأمل في كلمة "شوب" يجد أنها مصدرة بحرف التفشي والانتشار "الشين"، مما يعكس حالة العذاب التي طالت المشركين وأحاطت بهم، فلا يستطيعون الفرار منها أو الانفكاك عنها، وهي من حيث الترادف اللفظي، فإننا نعجز عن إتيان كلمة تؤدي المعنى نفسه والدلالات نفسها المصاحبة لها، فكلمة مثل "الخلط" أو كلمة "المزج" لا تحمل دلالة المعنى في الفريدة القرآنية.

****

(١) المفردات للراغب: ٤٦٩.

(٢) الكشاف: ٤/ ٤٧، وراجع: تفسير الطبري: ٢١/ ٥٥، وتفسير القرطبي: ١٥/ ٨٧، وتفسير أبي السعود: ٧/ ١٩٤، وروح المعاني: ١٢/ ٩٣.

الفريدة الثانية: "أمعاءهم"، وقد وردت هذه الفريدة في قوله تعالى: ﴿ مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى ۖ وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ ۖ كَمَنْ هُوَ خَٰلِدٌ فِى ٱلنَّارِ وَسُقُوا۟ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ ﴾ {محمد:١٥}.

هذه الآية تنكر أبلغ إنكار مساواة الجنة بالنار مع عدم وجود حرف الإنكار، وفي ذلك زيادة تصوير لمكابرة من يسوي بين التمسك بالبينة والتابع لهواه، وأنه بمنزلة من يثبت التسوية بين الجنة التي تجري فيها تلك الأنهار وبين النار التي يسقى أهلها الحميم.

فالتعبير بهذه الفريدة – في هذا المقام – فيه إشارة إلى تفرد تلك الكلمة في الشدة والحرارة، فإذا كانت تقطع الأمعاء – وهي منتهى وصول الطعام والشراب– فكيف يكون فعلها في سائر أجزاء البطن الأخرى؟! ولذا قيل في صفة الحميم الذي يسقونه أنه "إذا دنا منهم شوى وجوههم، وانماز فروة رءوسهم، فإذا شربوه قطع أمعاءهم""[1].

كما أن هذه الكلمة فيها إثارة دواعي النفور والاشمئزاز من حال المخلد في النار في مقابلة حال النعيم، والتي يرفل فيها أهل الجنة وينغمسون، حيث الأنهار من الماء واللبن والخمر والعسل – إشارة إلى غزارتها– ورؤيتها تجري أمام أعين الرائين، فتجتمع لهم بذلك لذة النظر مع لذة الذوق.

ثم إن هذه الفريدة فيها نوع من إبراز البون الشاسع بين الحالين: حال المؤمنين وحال الكافرين، وهذا ما يتناسب مع مقام الآية وسياقها، فحال المؤمنين حال إكرام وإنعام، وحال الكافرين حال إذلال وإهانة.

فالمؤمنون يتنعمون في الجنة بظلالها والالتذاذ بشرب أنهارها، وهذا بكرمه – تعالى– وفضله، ولهم فوق ذلك سعادة بنعمة أخرى ذكرت مستقلة – لعظمتها– وهي مغفرته – تعالى– لهم، ووقايتهم من العذاب، سواء أريد بذلك عدم الخروج من هذا النعيم إلى العذاب، أو أريد الامتنان عليهم برأس الفضل، والسبب فيما هم فيه من النعيم وهو المغفرة.

على أن المتأمل يلحظ أن صورة النعيم فيها تفصيل وتفخيم لشأنه كما هو واضح، وفي المقابل فإن صورة العذاب وإن كانت موجزة فهي تشير بصياغتها إلى صنوف كثيرة منه، اقتضاها الخلود في النار بما يشير إليه من التقلب زمنا طويلاً فيها، وسقي الحميم الذي وردت صفته في الأحاديث الشريفة وطريقته المهينة في

---

(١) الكشاف: ٤/ ٣٢٢.

آيات أخرى، مثل قوله تعالى: ﴿ فَشَٰرِبُونَ شُرْبَ ٱلْهِيمِ ﴾ {الواقعة:٥٥}، وقوله تعالى: ﴿ ثُمَّ صُبُّوا۟ فَوْقَ رَأْسِهِۦ مِنْ عَذَابِ ٱلْحَمِيمِ ﴾ {الدخان:٤٨}.

****

المحور السادس: من أسرار الفرائد القرآنية في وصف طعام أهل النار

باستقراء هذا السياق لم أجد فيه إلا فريدة واحدة هي: "غُصَّة"، وقد وردت هذه الفريدة في

قوله تعالى: ﴿ إِنَّ لَدَيْنَآ أَنكَالًا وَجَحِيمًا ﴿١٢﴾ وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا ﴾ {المزمل:١٣}.

نزلت هذه الآية في صناديد قريش ورؤساء مكة من المكذبين المترفين والمستهزئين الضالين، حيث ذكرت ألوان العذاب الذي أعد لهم، بدءاً من القيود الثقيلة التي لا تفك أبدا – إهانة لهم لا خوفا من فرارهم– ثم في النار الشديدة الحر والاتقاد، وكذلك الطعام الذي يتردد في الحلق ولا يستسيغه، وختاما بالعذاب المؤلم الشديد الإيلام الذي لا يدع لهم عذوبة بشيء من الأشياء أصلاً.

والغصة – كما يقول اللغويون – الشجا الذي يعترض في الحلق، فيمنع من جريان الطعام والشراب والنفس[1].

وقد ذكر الألوسي أنه "طعام ينشب في الحلوق ولا يكاد يساغ كالضريع والزقوم، وعن ابن عباس أنه شوك من نار يعترض في حلوقهم، لا يخرج ولا ينزل"[2].

فهذه الفريدة تشير إلى ما وصل إليه حال صناديد قريش وما ينتظرهم من شتى ألوان العذاب ومختلف أنواع العقاب، فبعد أن كانوا أهل تنعم وترفه أصبح طعامهم لا يستساغ، فلا هو نازل في الحلق، ولا هو خارج منه.

فهؤلاء المكذبون الذين بدلوا نعمة الله كفرا، أعد الله لهم ما يكون عليهم – في الحياة الأبدية – ضدا لأصول النعم التي خولوها، فبطروا بها وقابلوا المنعم بالكفران، فالطعام ذو الغصة مقابل ما كانوا منهمكين فيه من أطعمتهم الهنية من الثمرات والمطبوخات والصيد.

على أن وصف طعام هؤلاء الجاحدين بتلك الفريدة يؤكد على أنه لما أتم النظم الكريم ما يقابل تكذيبهم، أتبعه ما يقابل النعمة، فقال: "وطعاما ذا غصة" أي: صاحب انتشاب في الحلق – كالضريع

---

(١) راجع: المفردات للراغب: ٦٠٧، وعمدة الحفاظ: ٣/ ١٦٤، وتاج العروس: ١٨/ ٥٥.

(٢) روح المعاني: ١٥/ ١١٩، وراجع: تفسير الطبري: ٢٣/ ٦٩١، وتفسير القرطبي: ١٩/ ٤٦، وفتح البيان: ١٤/ ٣٨٩.

والزقوم- يشتبك فيه فلا يسوغ، لا ينزل ولا يخرج بما كانوا يعانونه من تصفية المآكل والمشارب، وإفراغ الجهد بجميع المآرب[١].

ثم إن لفظ "غصة" يصور بجرسه اعتراض ذلك الطعام في الحلق وشجاه، فقد صدرت هذه الفريدة بحرف الغين الحلقي والذي يقرب مخرجه من البلعوم، ثم "الصاد" ذلك الحرف المجهور الشديد، خصوصا إذا كان مدغما، كل ذلك يلائم اختناق آكل هذا الطعام، وانسداد حلقومه.

فثقل هذه الكلمة وقوة تعبيرها يستمد من مجاورة الصاد المشددة والغين، ومثل هذا التركيب لا يرد في مفردة أخرى في القرآن.

والجدير بالذكر – هنا – أن هذه الحروف المصورة حروف احتكاكية، يقول الدكتور كمال بشر في تعريفها: "تتكون الأصوات الاحتكاكية بأن يضيق مجرى الهواء الخارج من الرئتين في موضع من المواضع، بحيث يحدث الهواء في خروجه احتكاكا مسموعا"[٢].

وهذه الأصوات هي: الفاء والثاء والدال والظاء والسين والشين والزاي والصاد والخاء والغين والحاء، والهاء، فالغين والصاد في هذه الفريدة يمثلان باحتكاكهما زيادة في الحسية، وكأن هؤلاء المكذبين يسمعون اعتراض الطعام في حلوقهم من خلال الصوت، وقديماً أشار فقهاء اللغة إلى مثل هذه المفردات، كالزفير والخرير وصرصر، وبحث.

****

(١) راجع: نظم الدرر ٢١/ ٢١.

(٢) علم اللغة العام – الأصوات للدكتور/ كمال بشر: ١١٨، الطبعة الأولى، دار المعارف – القاهرة، ١٩٧٠.

المحور السابع: من أسرار الفرائد القرآنية في وصف سرادق النار

ورد في هذا السياق فريدة واحدة هي: "سرادقها" في قوله تعالى: ﴿ وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ۚ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ۚ وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟ يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ ۚ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا ﴾ {الكهف:٢٩}.

تصور الآية إحاطة النار بالظالمين وما يصيبهم من عذاب أليم وحر شديد، يدفعهم إلى طلب الماء ليطفئوا حر جوفهم وحرارة أبدانهم، فيأتي الغوث بسائل شديد الحرارة، منتن الريح، يشوي وجوههم حين يدنونه منها، ويقطع أمعاءهم حين يشربونه.

والسرادق – كما يقول ابن منظور – ما أحاط بالبناء، والجمع سرادقات، والمراد من قوله "أحاط بهم سرادقها"، أي: صار عليهم سرادق من العذاب، والسرادق: كل ما أحاط بشيء نحو: الشقة في المضرب أو الحائط المشمل على الشيء"[١].

وذكر أبو السعود أن المراد من قوله "سرادقها" أي: "فسطاطها، شبه به ما يحيط بهم من النار، وقيل السرادق الحُجْزة – بضم الحاء وسكون الجيم– التي تكون حول الفسطاط[٢]، وقيل سرادقها: دخانها، وقيل: حائط من نار"[٣]، ويؤيد ذلك ما ورد في الحديث الذي رواه أبو سعيد الخدري أن النبي – صلى الله عليه وسلم– قال: "سرادق النار أربعة جدر، كثافة كل جدار منها أربعين سنة"[٤].

فمجيء هذه الفريدة في هذا المقام فيه إيحاء بالتمكن والشمول والإحكام؛ لإحاطة النار بالكافرين وتمكنها منهم تمكن السرادق من الشيء المشتمل عليه، وفي هذا ما يشير إلى انقطاع الأمل في النجاة.

كما أن التعبير بالسرادق فيه تأكيد على التناغم بين عناصر النظم في النسق الكريم، فما تفيده كلمة (السرادق) من دلالة هو الذي ينسجم ويتناغم مع ما تفيده الإحاطة من دلالة.

---

(١) راجع: لسان العرب: ١٠/ ١٥٧ (سردق).

(٢) وهو الحاجز الذي يكون محيطا بالخيمة يمنع الوصول إليها، فقد يكون من جنس الفسطاط أديما أو ثوبا، وقد يكون غير ذلك كالخندق.

(٣) تفسير أبي السعود: ٥/ ٢٢٠.

(٤) أخرجه الترمذي والحاكم. راجع: سنن الترمذي: ٤/ ٧٠٦ حديث رقم ٢٥٧، باب ما جاء في صفة شراب أهل النار، تحقيق وتعليق: إبراهيم عطوة عوض، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي – مصر، الطبعة الثانية ١٣٩٥هـ – ١٩٧٥م، والمستدرك على الصحيحين للحاكم: ٤/ ٦٤٣، باب الأهوال، حديث رقم ٨٧٧٥.

فالآية الكريمة – هنا – تقف لتترك النفس تقدر مبلغ ما سيلقونه من صنوف العذاب: بين إطباق النار المغلقة عليهم، واشتواء جلودهم، وذوبان أمعائهم بحر ذلك المهل، فهم كما قيل عنهم: "ألبسوا النضيج من النحاس، ومنعوا خروج الأنفاس، فالأنفاس في أجوافهم تتردد، والنيران على أبدانهم توقد، قد أطبقت عليهم الأبواب، وغضب عليهم رب الأرباب"[1].

والسرادق أثبت للكفرة تهكما – كما ذكر الطاهر ابن عاشور– حيث ذهب إلى أن السرادق يكون في بيوت أهل الترف، فإثباته لدار العذاب استعارة تهكمية[2].

على أن هذه الفريدة تلمح – أيضاً – إلى أن موطن الكافرين متوسط النيران، فهم "لا مخلص لهم منها، ولا فرجة يتفرجون بالنظر إلى ما وراءها من غير النار، بل هي محيطة بهم من كل الجوانب"[3].

فالنار تحيط بالكفرة من كل الجهات، فتشوي وجوههم وتذيب جلودهم، والعطش يلهب أجوافهم، فيسقون المهل الذي يسقط جلود وجوههم ويقطع أمعاءهم.

****

(١) التخويف من النار والتعريف بحال دار أهل البوار لابن رجب الحنبلي: ٩٠، تحقيق: بشير محمد عيون، مكتبة المؤيد – الطائف، دار البيان – دمشق، الطبعة الثانية ١٤٠٩هـ – ١٩٨٨م.

(٢) التحرير والتنوير: ١٥/ ٣٠٨.

(٣) مفاتيح الغيب: ٢١/ ٤٥٩.

المحور الثامن: من أسرار الفرائد القرآنية في وصف خزنة النار

ورد في هذا السياق فريدة واحدة هي: "الزبانية" في قوله تعالى: ﴿ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ ﴿١٧﴾ سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ ﴾ {العلق:١٨}.

وقد ذكر العلماء في سبب نزول هذه الآيات أن أبا جهل لما نهى النبي – صلى الله عليه وسلم– عن الصلاة عند المقام، انتهره رسول الله – صلى الله عليه وسلم– وأغلظ له، فقال أبو جهل: علام يتوعدني محمد وأنا أكثر أهل الوادي ناديا؟ فنزلت هذه الآيات[1].

ويقول اللغويون عن أصل هذه الفريدة إن الزبن: الدفع، وزبنت الناقة إذا ضربت بثفنات رجليها عند الحلب.. وقال ابن سيده وغيره: الزبن دفع الشيء عن الشيء كالناقة تزِبن ولدها عن ضرعها برجلها وتزْبِن الحالب، وقال قتادة: الزبانية عند العرب الشُّرَط، وكله من الدفع، وسمي بذلك بعض الملائكة لدفعهم أهل النار إليها.[2]

وجاء كلام المفسرين قريباً من كلام اللغويين، فهذا الزمخشري يقول عند حديثه عن هذه الآية: "والزبانية في كلام العرب: الشرط، الواحد: زِبْنية – كعِفْرية – من الزبن، وهو الدفع.. والمرد: ملائكة العذاب"[3].

فالتعبير بهذه الفريدة فيه تهديد مشوب بذلة وإهانة لأن هؤلاء الزبانية ليسوا كسائر الملائكة، وإنما لهم خصوصية تميزهم. يقول الفراء عند حديثه عن هذه الآية: "فهم أقوى، وهم يعملون بالأيدي والأرجل، والناقة قد تزبن الحالب وتركضه برجلها"[4]؛ ولذا جاء في آية الطور: ﴿ يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ﴾ {الطور:١٣}، أي يدفعون إليها دفعا عنيفاً شديدا بأن تغل أيديهم إلى أعناقهم، وتجمع نواصيهم إلى أقدامهم، فيدفعون إلى النار، ولا يكون ذلك إلا بالملائكة الأشداء والزبانية الأقوياء.

---

(١) راجع: أسباب نزول القرآن للواحدي: ٤٦٠، تحقيق: عصام بن عبد المحسن الحميدان، دار الإصلاح – الدمام، الطبعة الثانية ١٤١٢هـ – ١٩٩٢م.

(٢) راجع: أساس البلاغة: ١/ ٤٠٧ وما بعدها (زبن)، ولسان العرب: ١٣/ ١٩٤. وعمدة الحفاظ: ٢/ ١٣٤.

(٣) الكشاف: ٤/ ٤٧٩، وراجع: تفسير الطبري: ٢٤/ ٥٢٧، وتفسير القرطبي: ٢٠/ ١٢٧، وروح المعاني: ١٥/ ٤٠٩.

(٤) معاني القرآن للفراء: ٣/ ٢٨٠، تحقيق: أحمد يوسف النجاتي، ومحمد على النجار، وعبد الفتاح إسماعيل شلبي، الدار المصرية للتأليف والترجمة – مصر، الطبعة الأولى (د.ت).

ثم إن أبا جهل قد انفرد بمنع النبي – صلى الله عليه وسلم– من الصلاة عند الكعبة وتهدده وتوعده إياه، ولم يقدم على تلك الفعلة القبيحة والجريمة الشنيعة أحد غيره؛ ولذا جاء الرد الحاسم بتلك الفريدة التي لم ترد في القرآن إلا في هذا الموضع، والمراد من هذا التهديد: ليجمع أمثاله ممن ينتدي معهم ليمنع المصلين المخلصين، ويؤذي أهل الحق الصالحين، فإنه إن فعل ذلك تعرض لسخط ربه والتنكيل به، وسندعو له من جنودنا كل قوي متين، لا قبل له بمغالبته فيهلكه في الدنيا، أو يرديه في النار في الآخرة.

على أن هذه الفريدة هي التي تناسب المقام وتصوره أبلغ تصوير بما تشي به من ردع وزجر وتهديد وتنكيل لأبي جهل، وكل من ارتضى تهديده من أهل ناديه، فقد روى أن أبا جهل قال: لئن رأيت محمد يصلي لأطأن على عنقه، فقال النبي – صلى الله عليه وسلم: لو فعله لأخذته الملائكة عيانا.

والتهديد والتحدي والإنذار والتنديد بالطاغية قوي كل القوة، عنيف كل العنف، وتبدو روعة هذه القوة حينما يلاحظ أن النبي – صلى الله عليه وسلم– لم يكن قد آمن به من يستطيع له نصراً ويقف إلى جانبه، وأن المتصدي له زعيم معتد بقوته وماله وجاهه وناديه.

ويتبادر من عنف الآيات وقوتها القارعة أن الحكمة الربانية اقتضت أن يكون الرد على أول متصد للنبي – صلى الله عليه وسلم– من الزعماء الأقوياء بهذا الأسلوب؛ لتثبيت النبي وأصحابه القلائل الذين آمنوا به، ومواجهة الزعيم القوي بقوة وعنف يصدمانه على غير توقع.

ولا شك في أن النبي – صلى الله عليه وسلم– قد تلا الآيات على أصحابه، فقوت من روحهم وزادتهم إيمانا، ووصلت إلى صاحبها وناديه، فصعقتهم بعنفها، وجعلتهم يشعرون بالقوة الروحية التي يستمد منها النبي – صلى الله عليه وسلم– وازداد النبي – صلى الله عليه وسلم– بهذا وذاك قوة وعزما على الاستمرار في مهمته، غير مبال بالزعيم القوي وناديه[1].

****

(١) راجع: فتح البيان: ١٤/ ٤٢٦ وما بعدها.

المحور التاسع: من أسرار الفرائد القرآنية في وصف لهب النار

ورد في هذا السياق فريدة واحدة هي: "شواظ" في قوله تعالى: "﴿ يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنتَصِرَانِ ﴾ {الرحمن:٣٥}.

والضمير في قوله "عليكما" راجع إلى الجن والإنس، وهذا تصريح بأنهم معاقبون بعد أن عرض لهم بذلك تعريضاً بقوله: ﴿ يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانفُذُوا لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ ﴾ {الرحمن:٣٣}.

وأما أصل هذه الفريدة فيذكر أحمد بن فارس أن "الشين والواو والظاء كلمة واحدة صحيحة، فالشواظ: شواظ اللهب من النار لا دخان معه"[١].

وذكر غير واحد من المفسرين أن المراد بهذه الفريدة في تلك الآية إنما هو اللهب الخالص الذي لا يخالطه دخان[٢].

فهذه الفريدة تشير إلى هول الموقف وشدة ما ينتظر هؤلاء العصاة من ألوان البوائق والزعازع، فهم لا يستطيعون الهروب من عقاب الله ولا الفرار من عذابه؛ لأنه محيط بهم لا يقدرون على الخلاص منه.

كما أن هذه الفريدة هي التي تتناسب مع المقام وتصوره أبلغ تصوير فالنار التي تنتظر هؤلاء المارقين ليست ناراً عادية، وإنما هي نوع خاص يتلاءم مع فعلتهم الشنيعة ومحاولتهم القبيحة للخروج من جوانب السماوات والأرض هاربين من عقابه، فارين من عذابه؛ ولذا كان جزاؤهم لهبا غير مألوف ولا معهود، وإنما هو اللهب الذي لا يخالطه دخان؛ لأنه قد كمل اشتعاله، وذلك أشد إحراقاً.

على أن ذكر هذه الفريدة – هنا – يتناسب مع كلمة "نحاس" بعدها؛ إذ النحاس – كما ذكر معظم المفسرين[٣]– يراد به الدخان الذي لا لهب معه، وبه فسر ابن عباس وسعيد بن جبير وتبعهما الخليل، والمعنى عليه: أن الدخان الذي لم تلحقهم مضرته والاختناق به بسبب شدة لهب الشواظ، يضاف إلى ذلك الشواظ على حياله، فلا يفلتون من الأمرين ولا يقدرون على الامتناع من عذاب الله، بل يسوقهم إلى المحشر سوقاً[٤].

---

(١) مقاييس اللغة: ٣/ ٢٨ (شوظ).

(٢) راجع: تفسير الطبري: ٢٣/ ٤٥، والكشاف: ٤/ ٤٤٩، وتفسير أبي السعود: ٨/ ١٨٢.

(٣) راجع: تفسير الطبري: ٢٣/ ٤٧، وتفسير القرطبي: ١٧/ ١٧١، وروح المعاني: ١٤/ ١١٢، وفتح البيان: ١٣/ ٣٣١.

(٤) راجع: التحرير والتنوير: ٢٧/ ٢٦٠.

ويضاف إلى ذلك أن في تركيب كلمة "شواظ" جزئيات الحركة المعنية، وتصوير الحدث المادي، وذلك بعيدا عن المعنى، فالصوت هو الذي يوحي الآن، ويرسم الحركة في عملية نطق تحاكي الحدث؛ فإن الضمة على الشين تعين على انضمام الشفتين على حرف من حروف التفشي والانتشار، واستدارة الشفتين تتطلب جهدا، وفي هذا قوة اللهب، ثم يأتي الانتقال من الضم إلى الفتح على حرف شفوي ليدعو إلى تصور بدء إحاطة اللهب بهم، وتكثر هذه الإحاطة والتمكن في مد الألف، فليس هناك انقباض ولا انكماش، وإنما هو لهب خالص لا يخالطه دخان، ولا يكون هذا التصوير في كلمة سوى "شواظ".

فالقرآن الكريم نرى فيه مناسبة تامة بين الشكل والمضمون، ولا نرى محاكاة، أي: نرى مناسبة الصوت الدال للمدلول، فلا أقل من العودة إلى القرآن إذ قدم الأحوال النفسية، وتصوير أجزاء المواقف في الممدود والغنات والتنكير والسكنات والحركات، فالموسيقى اللفظية أسهمت في رسم العالم الداخلي والعالم الخارجي المتجلي.

الخاتمة

الآن انتهى بي التطواف في كتاب الله؛ استقراء لهذه الفرائد، وتحليلاً واستنباطا، وكان مما انتهى إليه البحث عدة أمور منها:

أولاً: أن الفرائد الواردة في سياق الحديث عن الجنة أكثر من الفرائد الواردة في سياق الحديث عن العذاب، ولعل هذا الأمر يلمح إلى تغليب جانب الرحمة على جانب العذاب، كما أن فيها مراعاة للبعد النفسي لدى المخاطبين الذي يميل في الغالب إلى سماع ما يسر النفس، ويثلج الصدر، ويبهج القلب، وقد يكون هذا وسيلة من وسائل الدعوة واستمالة النفوس إلى قبول الحق والرضا به.

ثانياً: تعد الفرائد الواردة في سياق الحديث عن شراب أهل الجنة أكثر الفرائد دورانا في هذه الدراسة، وهذا ينسجم مع طبيعة الجنة؛ لأن التلذذ والتفكه بالمشروب أظهر وأكمل وأسرع من التلذذ بالمطعوم؛ لأن الغاية من الجنة أنها دار النعيم المقيم والخلود الدائم.

ثالثاً: يغلب على الفرائد الواردة في سياق الحديث عن الجنة كونها من القيود المتممة لأصل المعنى، بخلاف الفرائد الواردة في سياق الحديث عن النار فإنها – في الغالب– تكون من أركان الجملة، وهذا هو الذي يتطابق مع مقتضيات الأحوال؛ فإن الحديث عن الجنة حديث مشوق، محبب إلى النفوس، ذو شجون، وهذا يقتضي إطناب العبارة والإسهاب فيها، وهو ما تحققه القيود وتلبيه.

ويضاف إلى هذا أن المقامات التي ترد في سياق الحديث عن الجنة تدور حول الامتنان والتفضل والتذكير بنعم الله – تعالى– على عباده، وهي مقامات تتطلب بسطة العبارة والإطالة فيها، وهو ما ينسجم مع طبيعة القيود في الكلام.

أما الحديث عن النار فهو حديث منفر تضيق النفوس ذرعا به وتنقبض الأفئدة، وأحوال الضيق مما يجنح فيها إلى اقتصاد العبارة وإيجازها؛ ومن ثم تأتي الفرائد الواردة في سياق الحديث عن الجنة من أركان الجملة في الغالب، ويقل دورانها في القيود مراعاة لهذا الاعتبار.

رابعاً: نجد في سياق الحديث عن النار مناسبة الصوت اللغوي للمعنى الذي تؤديه الفريدة في سياقها ومقامها من حيث القوة والشدة، كالذي نجده في "كبكبوا– مقامع– شوب– تلفح" على النحو الذي سبق تفصيله في التحليل؛ ولعل مرد ذلك أن الحديث عن النار فيه قوة ورهبة تناسبها تلك الأصوات اللغوية القوية.

خامساً: أن الفرائد الواردة في سياق الحديث عن الجنة والنار تأتي دائماً وفاء بحق السياق والمقام، فالذكر الحكيم يضع كل شيء في موضعه الأحق به، الأجدر بوجوده الذي لا يصلح غيره أن يحل محله، أو يسد مسده، وإلا فسد نظم الكلام وضاع رواؤه وبهاؤه.

سادساً: أكد هذا البحث على أن الترادف – بمعنى التطابق الكامل والتساوي التام– لا وجود له في القرآن، وقد زال الارتياب، وبرح الخفاء في تلك الفرائد التي ذكر أن لها مترادفات من لفظها، كما أبانت عنه الدراسة وذكرته في كثير من المواضع، وغير ذلك مما هو متناثر على صفحات البحث..

ولست أدعي بعدا من زلل، ولا سلامة من خطأ، فتلك دعوى عريضة أعوذ بالله منها، وإنما اجتهدت قدر الطاقة، وبذلت كل الوسع، ورجوت القبول، والحمد لله أولاً وآخراً، وصلي الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

أهم مراجع البحث:

١- الإتقان في علوم القرآن لجلال الدين السيوطي، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، الهيئة المصرية العامة للكتاب – القاهرة، الطبعة الأولى ١٣٩٤هـ – ١٩٧٤م.

٢- إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم للإمام أبي السعود العمادي، دار إحياء التارث العربي – بيروت (د.ت).

٣- أساس البلاغة لجار الله الزمخشري، تحقيق: محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة الأولى ١٤١٩هـ – ١٩٩٣م.

٤- أسباب نزول القرآن للواحدي، تحقيق: عصام بن عبد المحسن الحميدان، دار الإصلاح – الدمام، الطبعة الثانية ١٤١٢هـ – ١٩٩٢م.

٥- أسرار البلاغة القرآنية في سورة تبت يدا أبي لهب للدكتور/ محمود توفيق محمد سعد، مكتبة وهبة – القاهرة، الطبعة الأولى ١٤٣٨هـ – ٢٠١٧م.

٦- الأسرار البلاغية في الفرائد القرآنية للدكتور/ عبد الله عبد الغني سرحان، مركز التدبر والاستشارات التربوية – الرياض، الطبعة الأولى ١٤٣٣هـ – ٢٠١٢م.

٧- الإعجاز البياني للقرآن ومسائل ابن الأزرق للدكتورة/ عائشة عبد الرحمن، دار المعارف – القاهرة، الطبعة الثالثة (د.ت).

٨- إعجاز القرآن للدكتور/ عبد الكريم الخطيب، دار الفكر العربي – القاهرة، الطبعة الأولى ١٩٦٤م.

٩- البحر المحيط في التفسير لأبي حيان الأندلسي، تحقيق: صدقي محمد جميل، دار الفكر – بيروت، الطبعة الأولى ١٤٢٠هـ.

١٠- البرهان في علوم القرآن للزركشي، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية – بيروت، الطبعة الأولى ١٣٧٦هـ – ١٩٥٧م.

١١- بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز للفيروزآبادي، تحقيق: محمد علي النجار، لجنة إحياء التراث بالمجلس الأعلى للشئون الإسلامية– القاهرة ١٤١٢هـ – ١٩٩٣م.

١٢- التحرير والتنوير للشيخ محمد الطاهر بن عاشور، الدار التونسية للنشر – تونس، ١٩٨٤م.

١٣- التخويف من النار والتعريف بحال دار أهل البوار لابن رجب الحنبلي، تحقيق: بشير محمد عيون، مكتبة المؤيد – الطائف، الطبعة الثالثة ١٤٠٩هـ – ١٩٨٨م.

١٤- التفسير البياني للدكتورة/ عائشة عبد الرحمن، دار المعارف – مصر، الطبعة الأولى ١٩٧١م.

١٥- التفسير الوسيط لأبي الحسن الواحدي النيسابوري، تحقيق وتعليق الشيخ: عادل أحمد عبد الموجود وآخرين، دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة الأولى ١٤١٥هـ - ١٩٩٤م.

١٦- تهذيب اللغة لأبي منصور الأزهري، تحقيق: محمد عوض مرعب، دار إحياء التراث العربي – بيروت ، الطبعة الأولى ٢٠٠١م.

١٧- ثلاث رسائل في الإعجاز للرماني والخطابي وعبد القاهر الجرجاني: تحقيق الدكتور/ محمد خلف الله، والدكتور/ محمد زغلول سلام، دار المعارف – مصر، الطبعة الثالثة ١٩٧٦م.

١٨- جامع البيان في تأويل القرآن لمحمد بن جرير الطبري، تحقيق: أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة – بيروت، الطبعة الأولى ١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠م.

١٩- الجامع لأحكام القرآن لشمس الدين القرطبي، تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، دار الكتب المصرية – القاهرة، الطبعة الثانية ١٣٨٤هـ - ١٩٦٤م.

٢٠- خزانة الأدب وغاية الأرب لابن حجة الحموي، تحقيق: عصام شقيو، دار ومكتبة الهلال – بيروت، الطبعة الأولى ١٩٨٧م.

٢١- الخصائص لأبي الفتح عثمان بن جني، تحقيق: محمد على النجار، الهيئة المصرية العامة للكتاب، الطبعة الرابعة (د.ت).

٢٢- خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية للدكتور/ عبد العظيم المطعني، مكتبة وهبة – القاهرة، الطبعة الأولى ١٤١٣هـ - ١٩٩٣م..

٢٣- دراسات فنية في القرآن الكريم للدكتور/ أحمد ياسوف، دار المكتبي – سورية، الطبعة الأولى ١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦م.

٢٤- الدر المنثور لجلال الدين السيوطي، دار الفكر – بيروت، الطبعة الأولى (د.ت).

٢٥- ديوان الأعشى، تحقيق وشرح وتعليق الدكتور/ محمد حسين؛ مكتبة الآداب – القاهرة، الطبعة الأولى (د.ت).

٢٦- ديوان امرئ القيس، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف– القاهرة، الطبعة الرابعة ١٩٨٤م.

٢٧- ديوان المسيب بن علس، جمعة وحققه ودرسه الدكتور/ عبد الرحمن محمد الوصيفي، مكتبة الآداب – القاهرة، الطبعة الأولى (د.ت).

٢٨- ديوان النابغة الذبياني، جمعه وحققه وشرحه الشيخ/ محمد الطاهر بن عاشور، دار السلام- القاهرة، الطبعة الأولى ١٤٣٠هـ - ٢٠٠٩م.

٢٩- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني لشهاب الدين محمود الألوسي، تحقيق: علي عبد الباري عطية، دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة الأولى ١٤١٥هـ.

٣٠- زاد المسير في علم التفسير لأبي الفرج الجوزي، تحقيق: عبدالرازق المهدي، دار الكتاب العربي- بيروت، الطبعة الأولى ١٤٢٢هـ.

٣١- سر الفصاحة لابن سنان الخفاجي، تعليق الشيخ/ عبدالمتعال الصعيدي، مطبعة محمد علي صبيح- القاهرة، الطبعة الأولى ١٩٥٢.

٣٢- سنن الترمذي، تحقيق وتعليق: إبراهيم عطوة عوض، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي- مصر، الطبعة الثانية ١٣٩٥هـ - ١٩٧٥م.

٣٣- شروح سقط الزند للتبريزي والبطليوسي والخوارزمي، تحقيق: مصطفى السقا وعبدالرحيم محمود وعبدالسلام هارون وإبراهيم الإبياري وحامد عبدالمجيد، الهيئة المصرية العامة للكتاب، الطبعة الثالثة ١٤٠٨هـ-١٩٨٧م.

٣٤- الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية لأبي نصر الجوهري، تحقيق: أحمد عبدالغفور عطار، دار العلم للملايين- بيروت، الطبعة الرابعة ١٤٠٧هـ -١٩٨٧م.

٣٥- صحيح البخاري، تحقيق: محمد زهير بن ناصر الناصر، دار طوق النجاة، الطبعة الأولى ١٤٢٢هـ.

٣٦- صحيح مسلم، تحقيق: محمد فؤاد عبدالباقي، دار إحياء التراث العربي- بيروت، (د.ت).

٣٧- علم اللغة العام- الأصوات للدكتور/ كمال بشر، دار المعارف- القاهرة، الطبعة الأولى ١٩٧٠م.

٣٨- عمدة الحفاظ في تفسير أشرف الألفاظ للسمين الحلبي، تحقيق: محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية- بيروت، الطبعة الأولى ١٤١٧هـ -١٩٩٦م.

٣٩- فتح البيان في مقاصد القرآن لمحمد صديق خان، عني بطبعه وقدم له وراجعه: عبدالله بن إبراهيم الأنصاري، المكتبة العصرية للطباعة والنشر- بيروت، الطبعة الأولى ١٤١٢هـ -١٩٩٢م.

٤٠- الكشاف لجار الله الزمخشري، دار الكتاب العربي- بيروت، الطبعة الثالثة ١٤٠٧هـ.

٤١- لسان العرب لجمال الدين ابن منظور، دار صادر- بيروت، الطبعة الثالثة ١٤١٤هـ -١٩٩٤م.

٤٢- لطائف الإشارات لعبدالكريم القشيري، تحقيق: إبراهيم البسيوني، الهيئة المصرية العامة للكتاب، الطبعة الثالثة ٢٠٠٠م.

٤٣- المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز لابن عطية الأندلسي، تحقيق: عبدالسلام عبدالشافي محمد، دار الكتب العلمية- بيروت، الطبعة الأولى ١٤٢٢هـ.

٤٤- المحكم والمحيط الأعظم لابن سيده، تحقيق الدكتور/ عبدالحميد هنداوي، دار الكتب العلمية- بيروت، الطبعة الأولى ١٤٢١هـ-٢٠٠٠.

٤٥- المستدرك على الصحيحين للحاكم النيسابوري، تحقيق: مصطفى عبدالقادر عطا، دار الكتب العلمية- بيروت، الطبعة الأولى ١٤١١هـ- ١٩٩٠م.

٤٦- مسند الإمام أحمد، تحقيق: شعيب الأرنؤوط- عادل مرشد وآخرون، مؤسسة الرسالة- بيروت، الطبعة الأولى ١٤٢١هـ-٢٠٠١م.

٤٧- معاني القرآن للفراء، تحقيق: أحمد يوسف النجاتي ومحمد علي النجار وعبدالفتاح إسماعيل شلبي، الدار المصرية للتأليف والترجمة- مصر، الطبعة الأولى (د.ت).

٤٨- معجم مقاييس اللغة لأحمد بن فارس، تحقيق: عبدالسلام محمد هارون، دار الفكر- بيروت، الطبعة الأولى ١٣٩٩هـ-١٩٧٩م.

٤٩- مفاتيح الغيب لفخر الدين الرازي، دار إحياء التراث العربي- بيروت، الطبعة الثالثة ١٤٢٠هـ.

٥٠- المفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهاني، تحقيق: صفوان عدنان الداودي، دار القلم- دمشق، الطبعة الأولى ١٤١٢هـ.

٥١- من بلاغة القرآن لأحمد بدوي، نهضة مصر- القاهرة، الطبعة الرابعة ٢٠٠٥م.

٥٢- النشر في القراءات العشر لشمس الدين ابن الجزري، تحقيق: علي محمد الضباع، دار الكتب العلمية- بيروت، نسخة مصورة عن المطبعة التجارية الكبرى.

٥٣- نظم الدرر في تناسب الآيات والسور للبقاعي، دار الكتاب الإسلامي- القاهرة، (د.ت).

ملخص البحث

يتوفر هذا البحث على دراسة الفرائد القرآنية في جانب من جوانبه التي كثر دورانها في الذكر الحكيم، وهي الفرائد التي وردت في سياق الحديث عن الجنة والنار، حيث بلغ عدد الفرائد الواردة في سياق الحديث عن الجنة إحدى وعشرين فريدة، وعدد الفرائد الواردة في سياق الحديث عن النار تسع عشرة فريدة.

وتعكف هذه الدراسة على البحث في أسرار هذه الفرائد، وتتبع أسرارها ونكاتها البلاغية، ومحاولة تعمق أسباب إيثارها دون غيرها – مما هو في معناها– وبيان مدى مواءمتها للمعنى والغرض، ولطبيعة الموقف أو السياق الذي وردت فيه.

وأما عن المنهج الذي سار عليه البحث فهو المنهج الاستقرائي التحليلي، الذي يقوم على حصر الفرائد القرآنية –التي وردت في سياق الحديث عن الجنة والنار– ثم تبويبها وتصنيفها على حسب الفصول والمحاور، ثم تحليلها تحليلاً بلاغيا يقوم على استكناه أسرارها واستبطان أبوابها، ومحاولة الكشف عن أسباب اصطفائها بإيثارها في مقام ما دون غيرها.

وكان مما انتهى إليه البحث عدة أمور منها: أن الفرائد الواردة في سياق الحديث عن الجنة أكثر من الفرائد الواردة في سياق الحديث عن العذاب، ولعل هذا الأمر يلمح إلى تغليب جانب الرحمة على جانب العذاب، كما أن فيها مراعاة للبعد النفسي لدى المخاطبين الذي يميل في الغالب إلى سماع ما يسر النفس، ويثلج الصدر، ويبهج القلب، وقد يكون هذا وسيلة من وسائل الدعوة واستمالة النفوس إلى قبول الحق والرضا به.

على أن الفرائد الواردة في سياق الحديث عن شراب أهل الجنة أكثر الفرائد دورانا في هذه الدراسة، وهذا ينسجم مع طبيعة الجنة؛ لأن التلذذ والتفكه بالمشروب أظهر وأكمل وأسرع من التلذذ بالمطعوم؛ فالغاية من الجنة أنها دار النعيم المقيم والخلود الدائم.

ويغلب على الفرائد الواردة في سياق الحديث عن الجنة كونها من القيود المتممة لأصل المعنى، بخلاف الفرائد الواردة في سياق الحديث عن النار فإنها – في الغالب– تكون من أركان الجملة، وهذا هو الذي يتطابق مع مقتضيات الأحوال؛ فإن الحديث عن الجنة حديث مشوق، محبب إلى النفوس، ذو شجون، وهذا يقتضي إطناب العبارة والإسهاب فيها، وهو ما تحققه القيود وتلبيه.

ويضاف إلى هذا أن المقامات التي ترد في سياق الحديث عن الجنة تدور حول الامتنان والتفضل والتذكير بنعم الله – تعالى– على عباده، وهي مقامات تتطلب بسطة العبارة والإطالة فيها، وهو ما ينسجم مع طبيعة القيود في الكلام.

أما الحديث عن النار فهو حديث منفر تضيق النفوس ذرعا به وتنقبض الأفئدة، وأحوال الضيق مما يجنح فيها إلى اقتصاد العبارة وإيجازها؛ ومن ثم تأتي الفرائد الواردة في سياق الحديث عن الجنة من أركان الجملة في الغالب، ويقل دورانها في القيود مراعاة لهذا الاعتبار.

ونجد في سياق الحديث عن النار –أيضا– مناسبة الصوت اللغوي للمعنى الذي تؤديه الفريدة في سياقها ومقامها من حيث القوة والشدة، كالذي نجده في "كبكبوا– مقامع– شوب– تلفح"؛ ولعل مرد ذلك أن الحديث عن النار فيه قوة ورهبة تناسبها تلك الأصوات اللغوية القوية.

Abstract

This research is a study of the Quranic uniqueness in a number of aspects, which are widely circulated throughout the Holy Quran, and deal with the Fire and the Garden. The number of mentions in the context of the Garden is twenty one times of uniqueness while the number of the Fire is nineteen.

This study investigates the secrets of such uniqueness, follows their rhetorical secrets and anecdotes, and tries to deepen the reasons for their exclusion, which are in their meanings in order to show their compatibility with meaning and purpose and the nature of the context in which they were mentioned.

As for the approach taken by the researcher, it is the analytical inductive approach, which is based on the counting of Quranic uniqueness - which were mentioned in the context of the talk about the Fire and the Garden - and then classify according to the chapters, and then analyze by a rhetorical based on its secrets and introspection, The reasons beyond their selection.

The research concludes several things: the uniqueness mentioned in the context of the talk about the Garden is more than the uniqueness mentioned about the context of the talk of torture. This indicates that the side of mercy overweighs the side of torment, and also takes into account the psychological dimension of the audience, who often tends to hear what pleases the soul and warms the cockles of the heart, and this may be a means of preaching and the appeal of the souls to accept the right way and satisfy with it.

However, uniqueness in the context of the talk about the drink of the people of the Garden is the most important role in this study, and this harmony with the nature of the Garden, where the enjoyment of the drink is more evident and faster than the enjoyment of the food. The purpose of the Garden is that it is the house of eternal bliss and immortality.

And the majority of the uniqueness in the context of the talk of the Garden is being a complementary constraint to the origin of the meaning, on the contrary of the uniqueness mentioned in the context of talk about the Fire, which are often the pillars of the sentence, and this is in

accordance with the requirements of the conditions; the speech of the Garden is interesting, appeal to the souls. This requires redundancy of the phrase, which is achieved by the constraints and meet it.

In addition to this such mentions in the context of the speech about the Garden and the Fire revolves around the gratitude and remembrance of the blessings of Allah -- the Almighty – upon His servants, which requires simplicity of the phrase and its prolongation, which in turn is consistent with the nature of the restrictions in speech. As for the speech about the Fire, it is a abhorrent and undesirable, it is not acceptable talk by souls which tend to the simplicity of the phrase and its conciseness. Whereas the uniqueness of the mentions of the Garden is often from the main parts of the sentence which lessens its circulation

In the context of the talk about the Fire, the research comes to conclusion that the onomatopoeia which is performed by the uniqueness is strong and intense as in the following words "كبكبوا" "مقامع" "شوب" and "تلفح" perhaps this is due to the talk about the Fire is full of strength and frightening which suits this kind of onomatopoeia.